عبد السلام العجيلي

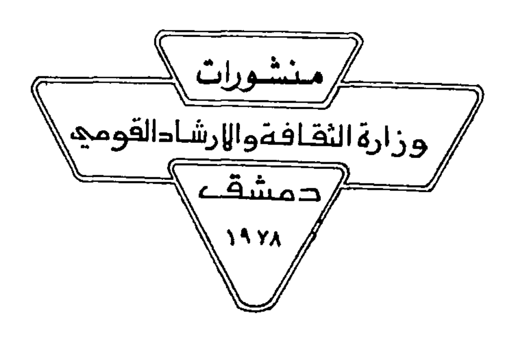
عيادة في الريف



عيـادة في الريـف

عبد السلام العجيلي

عيادة في الريف



المقدمة

كانت الرقة ، بلدتي التي انتسب اليها وفيها امارس عملي ، قرية كبيرة حين افتتحت فيها عيادتي الطبية منذ اكثر من ثلاثين عاما . قرية تقع في شمالي سورية ، على ضفاف نهر الفرات ، يتراوح عدد سكانها بين عشرة آلاف وخمسة عشر الف نسمة ، محاطة ببادية متسعة الاطراف تسكنها القبائل البدوية المختلفة ، وهي في طبيعتها وتكوينها السكاني وحياتها الاجتماعية اقرب الى البداوة منها الى الحضر . وقد اتسعت رقعة الرقة منذ ذلك اليوم وكثر ساكنوها حتى قاربوا في العدد مائة الف او زادوا ، الا انها لم تخرج عن هيئة الريف والبداوة في جوها وفي نوعية حياة اهلها وعلاقات بعضهم ببعض .

وفي جو الريف هذا ذى الطابع البدوي عشت ولقيت من الناس صنوفا ومن الحوادث ألوانا ، خلال ثلث قرن من الممارسة الطبية مقطعة بالاسفار المتعددة وبفترات من العمل السياسي كانت تبعدني عن عيادتي زمنا قصيرا ثم تعيدني اليها . كثير مما مرّ بي في هذه العيادة يعتبر غريبا عند من لم يقم في البيئة التي اقمت فيها او يخالط الناس الذين خالطتهم . وهذا مادفعني الى تسجيل بعض مشاهداتي في ظروف عملي خلال تلك الحقبة من الزمن في فصول قصيرة جمعتها في هذا الكتاب واقدّم لها بهذه الكلمات .

وانا مدين في اقدامي على كتابة هذه الفصول الى زميل راحل ، هو الصديق الدكتور صبري القباني ، مؤسس مجلة « طبيبك » . لقد كان

رحمه الله يلـح عليّ في ان اخص النواحي الطبية بجانب مـن نشاطي الكتابي الموزع على المجلات الأدبية ومجالات الثقافة العامة . فكان ان اكتبت لمجلته مقالات متتابعة استقيت مواضيعها من واقع الناس والاحداث في عيادتي الريفية ، ثم اضفت اليها مقالات اخرى من نوعها ، لم تنشر ، فجاء هذا الكتاب . وانا انتهزها فرصة لأحيّي في هذه المقدمة ذكرى ذلك الزميل العزيز ، الذي فقدناه في اوج حيويته واندفاعه ، والذي كـان رائدا مدهشا في ميدان تبسيط الثقافة الطبية وتعميمها على الجماهير العربية ، ودليلا لها حاذقا في توجيهها نحو المعرفة العلمية في ما يتعلق بصحة الاجسام وجمالها .

وبعد . فان من اتيحت له متابعة نتاجي الأدبي ، وهو لا يشكو القلة في كميتـه ، يعرف اني استلهمت معـارفي العلمية ومشاهداتي كطبيب ريفي في اعمال أدبية كثيرة قبـل هـذا الكتاب . استلهمتها في قصص ومقالات ومحاضرات ، تضمنتها كتبي المطبوعة ودوريات الوطن العربي المختلفة . غير ان فصول « عيادة في الريف » هذا تختلف عما نشرته سابقا في مجاله بأنها تسجيل لوقائع اكثر منها ابداعا لعمل فني . انها تدوين لحكايات صادقة ، على غرابة بعضها ، نقلتها بمضحكاتها ومؤسياتها ، وبما يُخجل منها وما يُرضي . فاذا كان في هذه الحكايات أثر للمعالجة الفنية فهي في الاداء لا في سير الوقائع . واذا كان في ايرادها من غاية مقصودة فهي في الاشادة بالطريف والتعريف بالمجهول والتنبيه الى المهمل اكثر منها في محاولة لازجاء الوقت والامتاع والالهاء .

ع . ع .

الكَلَب ، ام الجهــل ؟

دخل اليّ يحيط به عدد من أهله رجالا ونساء : كهل جاوز الستين من عمره ، أشيب الشعر وثيق البنيان ، لا تبدو عليه علائم ضعف او مرض لولا قاق في نظراته وبعض الكمود في لون سحنته • كان أهله يبدون قلقين ، مثلــه ، يسرّون شيئا لا يريدون ان يطلعوني عليــه • سألته عن شكواه فقال : لاشيء ، يدي اليسرى حتى الكتف ثقيلــة ولكنها لا تؤلمني • فحصته فحصا سريعا لم أجد له في نفسي مبررا • كنت أشعر ، باحساس الطبيب المجرب ، بأن علته ليست في أعضاء بدنه التي كنت افحصها • فجأة قال : قتلني الجوع والعطش •••• لم آكل ولم أشرب منذ خمسة أيام ••• منذ خمسة أيام لم تدخل نقطة ماء في فمي ! فتحت لي هذه الكلمة الباب الى سره • قلت للممرضة : اعطني كأس ماء • حملت كأس الماء وقربتها منه • منذ وقعت عيناه على الكأس في يد الممرضة زاغت نظراته•وحين تقربت منه أخذ صدره يعلو ويهبط، وارتفع تنفسه بصوت مسموع ابتدأ فحيحا وانتهى حشرجة • بــدا الرجل وكأنــه يختنق ، اذ ازرق وجهه وضاق منخراه ثم اتسعــا ، واضطربت اطرافه واختلج كل بدنه • حينذاك أبعدت الكأس عنــه بسرعة وقد تأكدت من معرفة مرضه ••• لقد كان ذلك الرجل مصابا بداء الكَلَب !

نعم ، لقد كان مصابا بالكَلَب • كان أهل الرجل في شك غير

ضئيل من ذلك • بل انهم كانوا في شبه يقين ، الا انهم كانوا يتسترون عليه ويدارون عنه تعلقا بخيوط الأمل الواهية وتهربا من النطق باسم هذا المرض المخيف ، والمعيب في نظرهم • وحين افهمتهم الأمر باحوا بما كانوا يخفونه ، واعترفوا بما كانوا يعرفونه • قالوا انه منذ خمسين وستة أيام على الضبط ، وبينما كان هذا الرجل راقداً في فراشه ، هجم عليه ما لا يعرفه ، حيوان لم يميزه في ظلمة الليل ، عضه في عقلة أحد أصابع كفه اليسرى عضة انتزع بها قطعة من لحم الاصبع ، واختفى ذلك الحيوان في الظلام الدامس • كان ذلك منذ ستة وخمسين يوما•••

سألت الأهل بعد اعترافهم بهذا : الا تعرفون ان عضة مثل هـذه شيء خطير ؟ لماذا لم تراجعوا به طبيبا أو مستوصفا من مستوصفات الحكومة ؟ هزت زوجة الرجل رأسها وقالت : لا جزى الله اولاد الحلال خيرا ••• غرروا بنا ••• لم نعرضه على طبيب بـل ذهبنا بـه الى الجنيدات •••

أصبح الأمر واضحا ، ومفجعا في نفس الوقت : في جنح الليل ، ليل البادية التي يقطنها هـذا الرجل ، تعرض المسكين لعضة حيوان مسعور ،مصاب بالكَلَب•ربما كان ذاك الحيوان كلبا،وربما كان ثعلبا أو ابن آوى • الثعلب وابن آوى لا يهاجمان الانسان الا اذا اصيبا بهذا الداء • وحتى الخفاش قد يصاب بالكَلَب فيقدم عندئذ على عض الانسان • الا ان العضة لم تكن عضة خفاش على كل حال • كان سهلا ان ينجو الرجل من هذا المرض المخيف لو انه اعلم طبيبا ، أي طبيب ، بالأمر في الاسبوعين الأولين من حادثة العض • كان الطبيب سيحيله الى مستوصف الصحة القريب الذي يلتزم مجانا بمداواة المعضوض ،

بحقنه يوميا باللقاح ضد الكَلَب لمدة واحد وعشرين يوما متتالية ، وبهذا يتوقف نمو الداء في دور الحضانة ويسلم الرجل من المضاعفات الخطيرة والقتالة . أما بعد مضي الاسبوعين الأولين فان الحمات الراشحة التي هي عامل الكَلَب تنمو وتفرز ذيفاناتها السمية التي تسري الى الجملة العصبية ، فتصبح النجاة من الاصابة بالكَلَب مستحيلة ، ويمسي الموت بهذا الداء محتما . ومريضنا هذا لم ير طبيبا ولم يره أي طبيب لأن اولاد الحلال ، كما سمتهم الامرأة ، اشاروا على أهله بأن يتداوى ، لا عند الاطباء ، بل عند الجنيدات .

والجنيدات فرع من عشيرة مشائخ ينسب الناس اليهم القدرة على شفاء المصابين بالاضطرابات العصبية،يداوون أولئك المصابين بالقراءات أو بحفلات الذكر أو بالتقييد بالحديد والكي بالنار والصفع بالنعال . لست أدري بماذا داوى الجنيدات هذا المسكين الذي تعرض لعضة الحيوان المسعور . ولكن الذي لا شك فيه انهم احتبسوه واخضعوه لشعوذاتهم حتى فاتت الفرصة التي تجعل المعالجة الطبية مفيدة،وهكذا حكموا عليه بأن يقع فريسة لعذاب العطش والخوف من الماء والهيجان وألم الاختناق ثم الموت الذي لانجاة منه .

قلت لأهل المريض : اما كان في وسعكم ان تضيفوا الى معالجة الجنيدات معالجة طبية مجانية تتولاها الدولة في كل مكان ، وبطيبة خاطر ، ولا تكلفكم فلسا ؟ قلت هذا وانا اتذكر ما قاله عمر بن الخطاب حين مرّ بأحد المسلمين فرأى ابله مصابة بالجرب ، فسأله : بماذا تداوي اباعرك من جربها ؟ قال الرجل : اني ادعو الله لها . فقال عمر رضي الله عنه : اجعل مع دعائك شيئا من القطران ! ماضرّ اذن لو جعل هؤلاء

الناس مع دعاء الجنيدات وتعزيماتهم تلـك الحقن التي انقذت حياة عشرات الآلاف مـن الناس في مختلف بقاع الارض ، منـذ اكتشف باستور اكتشافه الرائع في معالجة داء الكَلَب ؟

الا ان سؤالي كان في غير محله وفي غير وقته • لقد فات الاوان على مايفيد هذا الكهل الوثيق البنيان التام الصحة ظاهريا ، الذي لم يكن يشكو غير ثقل في الذراع ، والذي كنت اعرف انـه محكوم بالموت بعد عذاب رهيب • كنت واثقا بأنه ، رغم صحته الظاهرة ووعيه الكامل ، لم تبق له غير أيام قليلة في هذه الدنيا ، ثلاثة ايام او اربعة ايام اذا كثرت • اخبرت أهله بذلك وانا لا ادعي العلم بالغيب • وهذا الذي كان • اذ فارق الرجل الحياة بعد يومين ، ضحية عضة الحيوان المسعور ، وضحية الجهل المطبق •



وصفات الحاج نجم وحكاياته

الحاج نجم رجل خفيف الروح ظريف المنطق ، لا علاقة له بالطب والتطبيب . ولكن لحيته العريضة التي اطلقها بعد ان حج اكسبته مهابة ووقارا وجعلت الناس يلتمسون عنده ما عند أمثاله من المشايخ ، من البركة في اعمالهم والشفاء من امراضهم . ولا اظن الحاج نجم عرض نفسه للناس كطبيب ، او كشيخ ذي كرامة ، الا ان خفة روحه كانت تدفعه الى ان لا يرد من طمع منه بالبركة او بوصفة لدائه . قال لي العم أبو صادق ، وهو كهل مسن مصاب بروماتزما مزمنة في ركبتيه ، في ذات مرة : ما رأيك بهذه الوصفة التي وصفها لي الحاج نجم لمرض رجليّ ؟ قلت : ماهي ؟ قال أبو صادق : نصحني الحاج نجم بأن اغمس شريحتين عريضتين من اللباد في البنزين حتى تتشربا به جيدا ، ثم ألف ساقيّ حتى الركبتين بهاتين اللبادتين . قلت : لقد سها الحاج نجم عن شيء . قال : ما هو ؟ قلت نسي عود الكبريت الذي يجب ان تشعله بقرب اللبادتين المشبعتين بنزينا بعد ان تلف ساقيك بهما !

ولا تتيح لي ظروفي ان التقي بالحاج نجم كثيرا . الا انه هو يأتي اليّ في كل عام مرة أو مرتين طالبا مني ان ازرقه بابرة وريدية من تلك التي تبعث حرارة مشعة في الجسم ، اذ يزعم انه يجد من هذه الابرة ما لا اعرفه لها من الفائدة . فهي ، على حد قوله ، تشد عصبه وتلين عروقه وتطرد الرطوبة من جسمه . وانا اجيب طلبه في كل مرة وازرقه بالابرة

عن طيب خاطر ، لا سيما انه يدفع ثمنها في كل مرة . لايدفع الثمن مالا بالطبع ، بل يدفعه قصة طريفة أو دعابة جميلة يرويها لي أو لجمهور المرضى في عيادتي .

في احدى المرات ، وكان ينتظر ، في بهو العيادة الخارجي ، ان افرغ له ، سمعته يقص على المرضى المحيطين به في قاعة الانتظار حكاية لم اعثر عليها في كل كتب الاسرائيليات التي قرأتها في صباي . قال الحاج نجم في حكايته ما يلي :

بينما كان سيدنا موسى على جبل الطور يناجي ربه فطن الى امر ، فقطع مناجاته وقال لرب العزة : يا سيدي ومولاي ، كتفي تؤلمني منذ يومين ، فهلا شفيتني من الوجع ؟ فقال عزّ وجلّ : اذهب الى زيد من الاطباء يعطك الدواء الشافي . ولما كان موسى شديد الفضول ، وحكايته مع الخضر في سورة الكهف معروفة ، فقد اعترض قائلا : الهي انت الذي خلقت الداء والدواء ، وخلقتني وخلقت الطبيب زيدا ، فلماذا تحيلني اليه ؟ قال تعالى حينئذ : حسنا يا موسى ، اذهب الى اسفل الوادي تجد شجرة تين ، خذ ورقة منها وضعها على كتفك طول الليل فان فيها دواءك . فنزل موسى كما أشار عليه رب العالمين وأخذ من شجرة التين تلك ورقة وضعها على كتفه ثلاث ليال متوالية ، ومع ذلك فانه لم يتخلص من الألم . وفي المناجاة التالية بسط شكواه لرب القدرة قائلا : يا الهي ، ورقة التين لم تشفني ، فماذا افعل ؟ قال تعالى : اطعني اذن واذهب الى الطبيب زيد . فامتثل موسى هذه المرة للامر ، بأن ذهب الى ذلك الطبيب ، فاستشاره ودفع خمس ليرات ثمن الاستشارة . وكم كان عجبه ان وجد الطبيب يشير عليه باستعمال

ورقة من اوراق شجرة التين نفسها التي استعملها قبل ولم يشف . وكان عجبه اكبر حين وجد انه باستعمال الورقة في هذه المرة قد شفي وان كتفه استعادت سلامتها وقوتها . ولما استوضح من الباريء عزّ وجل على جبل الطور عـن كيفية شفاء ورقة التين لـه بعد استشارة الطبيب مع انها لم تشفه قبلها ، قال عزّ وعلا : تأدب يا موسى ، ان شفاءك لم يكن في ورقة التين وحدها ، بل في ورقة التين ومعها الليرات الخمس !

هذه كانت حكاية الحاج نجم التي رواها للمرضى وذويهم في قاعة الانتظار . وقد ختم الحكاية بقوله : وهكذا جعل الله الطبيب جسرا بين الداء والدواء ، لا يصل هذا الى ذاك الا عن طريقه . ولهذا قال سادتنا الثقاة القدماء : بلد لا طبيب فيه بلد لا يسكن شرعا ...

فهل انا مخطيء حين اقول ان الحاج نجم يدفع في ما ازرقه به من ابر ثمنا وافيا كافيا ؟



جرح غير نافذ

ليست هذه قصة بوليسية ، وانما هي احدى حكايات الطب في الريف تشبه ان تكون قصة بوليسية .

* * *

طلب الي قاضي التحقيق ان ارافقه في خبرة طبية الى قرية من قرى الفرات تبعد نحوا من خمسين كيلو مترا عن مقر عيادتي . لم يكن لي مفر من قبول المساهمة بهذه الخبرة على تفوري من الاشتراك بامثالها . فلم يكن في البلدة في تلك الايام ، بعد الطبيب الحكومي ، طبيب سواي . وهكذا قصدنا تلك القرية في يوم حار ، وعلى طريق شاقة متربة .

في تلك القرية كان علينا ان نخرج من حفرة في مقبرتها جثة صبي مراهق ، مات قتلا منذ ثلاثة شهور ، للتأكد من سبب وفاة ذلك الصبي الذي كان زميلي الطبيب الحكومي قد شاهده بعد مصرعه بساعات قليلة قبل تلك الشهور الثلاثة . وكان زميلي هذا الذي يقوم بمهمة الطبيب الشرعي قد كتب في تقريره الذي أعطاه حينذاك ان الصبي المغدور مصاب بجرح غير نافذ ، له فوهة دخول وليس له فوهة خروج، حادث بآلة قاطعة كخنجر او ما شابهه تناولت القلب وسببت الوفاة . فكان علي انا ، بناء على طلب من أهل المتهم بقتل ذلك الصبي ، ان

اكشف على الجثة من جديد واعطي رأيي في صحة تقرير زميلي وهل هو مطابق للواقع ام لا .

وفي طريقنا اطلعني القاضي على وقائع القضية التي ننتقل الى هذه القرية البعيدة لنزيدها ايضاحا . كان الصبي القتيل راعيا لقطيع من الغنم في احد سهول الفرات ، فبلغ أهله ذات يوم ان ابنهم وجد ميتا ، بعد اصابة بجرح في صدره ، دون ان تعرف ظروف موته . جاء رجال الدرك بسرعة وحققوا في الأمر فعرفوا ان القتيل لم يكن وحده في ذلك السهل ، بل كان معه راع آخر ، شاب لم يبلغ العشرين من عمره ، يرعى مثله قطيعا من الغنم . سألوا هذا الراعي عن معلوماته عن مقتل زميله فانكر معرفة أي شيء عنه وان تكون له به اية علاقة . ولكن رجال الدرك وجدوه متمنطقا بخنجر عليه آثار دم جديدة . جبهوه بهذا وقالوا له ان هذا الدم هو دم الراعي القتيل ، فاستمر في انكاره فترة من الوقت . والرعاة في العادة جماعة غفل سذّج لا يعرفون الالتواء ولا التلون وليس عندهم الذكاء الذي يعينهم على التخلص من المآزق . فكان قليل من التهديد الذي القي على مسمع الراعي الموقوف ، مع بعض الصفعات على وجهه ، وعصا او عصوان على قدميه ، كافية لأن تجعله يقرّ على نفسه بالجريمة ويعترف بأنه طعن بخنجره زميله تلك الطعنة التي كانت على حياته القاضية .

وهكذا لم يعد في القضية سر . وحين جاء القاضي يرافقه الطبيب الشرعي ليحققا في الجريمة وجدا الامر جليا : راع قتيل مصاب بطعنة وحيدة ، جرح غير نافذ ، في ناحية القلب ، وراع آخر يحمل خنجرا مدمى يقر بأنه قتل الاول ! وكان نهار التحقيق نهارا قائظا في اوائل

أيام الصيف ، وفوق ذلك كان الجراد قد غزا المنطقة باسراب كثيفة تملأ الجو وتغطي الارض وتلح على الجموع الواقفة في المقبرة وقت الظهيرة ، فما كان الناس يبعدونها عن الجثة وعن القاضي والطبيب الا بصعوبة . لم يجد الطبيب ، ولا ارتأى القاضي ، ان الجثة في حاجة الى تشريح مـا دامت ظروف القتل واسباب الوفاة معروفة . فأذنا بدفن الميت ، وعادا الى البلد مسرعين .

كل هذا حدث منذ ثلاثة شهور . بدأت المحكمة جلساتها المتباعدة في هذه الاثناء استعدادا لاصدار قرارها في الواقعة ، وكان واضحا انه قرار سيدين الراعي المعترف بجريمته وسيوقع به العقوبة التي ينص عليها القانون . ولكن من لهم علاقة بالراعيين ، القتيل والمتهم بقتله ، لـم يكونوا ينتظرون قرار المحكمة ليتصرفوا في سلوكهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض. لقد كان الراعيان من قبيلتين مختلفتين ، غير انهمـا متجاورتان في مناطق السكن . فكان ذلك مدعاة الى ان تجرّ هـذه القضية ذيولا وتسبب مشاكل بين القبيلتين ، مما هو معروف في الحياة العشائرية وتقاليدها في القتل والثأر . ومع ان المجتمع المدني وجهاته الرسمية ، من قضاة وشرطة وطب شرعي ، لا تعترف بمقتضيات الحياة العشائرية فاني كأحد ابناء هذه الحياة لم اكن قادرا على ابعاد ظروف هذه الجريمة او ذيولها عن بالي . كما اني كنت اكثر تقديرا من رفيقي في هذه المهمة ، القاضي والطبيب الآخر ، لما يمكن ان يؤدي اليه كشفنا الجديد على الجثة او تحقيق جديد في ظروفها من تخفيف لجرم الجاني او بيان لدوافعه . ولكن هل سيكون بامكاننا ان نأتي بجديد في كشفنا بعد مضيّ ثلاثة شهور على جثة مدفونة في باطن الارض وفي هـذا الصيف المحرق ؟

قصدنا المقبرة التي كانت على تل منعزل ، فوجدنا رجال الدرك قد سبقونا فاشرفوا على حفر القبر وانتظروا حضورنا حتى تخرج الجثة من حفرتها امام اعيننا . ويبدو ان تراب ذلك التل كان كلسيا ، ماصا للرطوبة . فقد وجدنا الجثة متماسكة الاجزاء ، غير متفسخة ، كأنها مومياء محنطة . كانت ملامح وجه الصبي القتيل واضحة ، كما كانت فوهة الجرح بينة : فوهة واسعة فاغرة فاها في صدره ، كبيرة الاحتمال ان تكون حدثت بضربة سكين او خنجر كما افاد زميلي الطبيب الشرعي في تقريره الاول . غير اني لم اكتف برؤية هذه الفوهة ، بل طلبت من الممرض المساعد ان يتقصّى الجرح ، ثم ان يشق عن الصدر لنرى مسير الاداة الجارحة . كانت الرئتان جافتين متكمشتين ، لم تذوبا رغم هذه المدة الطويلة من الدفن ، والقلب متقلصا الا ان اثر التمزق فيه واضح . واستقصينا الاضلاع فلم نجد فيها كسرا . وحين قلبنا الجثة لنفحص ظهرها،وتحرينا العمود الفقري بعد ان سلخنا الجلد عنه وعن الاضلاع المجاورة ، كانت المفاجأة الكبيرة ... فقد وجدنا بين احدى الفقرات الظهرية والضلع المجاورة لها رصاصة بندقية ، ساكنة في الزاوية بينهما !

كانت مفاجأة كبيرة كما قلت . مفاجأة قلبت كل شيء رأسا على عقب وادخلت عناصر جديدة في القضية.هذا القتيل مات اذن برصاصة، لا بطعنة خنجر . تقرير الطبيب كان اذن خاطئا . اعتراف الراعي بالجريمة كان اذن كاذبا . رجال الدرك الذين انتزعوا ذلك الاعتراف بالضغط والارهاب كانوا اذن جناة اذ ألقوا التهمة على بريء . الراعي الذي لم يكن يحمل بندقية تنطلق منها تلك الرصاصة القاتلة كان اذن بريئا !

ومثلما قلبت هذه الرصاصة الساكنة في الزاوية بين الفقرة والضلع كل شيء رأسا على عقب ، ساهمت في الكشف عن اسرار هذه الجريمة الغامضة . كان الراعي القتيل واقفا بين نعاجه حين اصابته رصاصة طائشة . الرصاصة اطلقها انسان ، اهتدي اليه فيما بعد ، كان يتمرن على اصابة هدف ، على مبعدة من الراعي ودون ان يراه . دخلت تلك الرصاصة صدر الراعي من فتحة كبيرة ولم تخرج من ظهره لانها ، حين اطلقت من بعد ، كانت في آخر شوطها . وهذا هو ما غرر بالطبيب الشرعي حين اعطى تقريره ، فحكم بأن الجرح بآلة قاطعة لانه وجده غير نافذ ، بفوهة دخول كبيرة ولا فوهة خروج . كما غررت به اقوال الناس حوله عن الطعنة وعن الخنجر الملوث بالدم ، وغرر به اعتراف المتهم الذي انتزعه منه رجال الدرك ، وسهل التغرير حرّ النهار المحرق وغباره الخانق واسراب الجراد المحوّمة فوق الجثة وفوق الناس المجتمعين .

حين نزلنا من تل المقبرة عائدين الى سيارتنا ، بعد اكتشافنا تلك الرصاصة ، نزل معنا منه في مجموعتين متباعدتين الفريقان المتخاصمان من قبيلتي القتيل والمتهم ظلما بالقتل . كان اهل القتيل ينفضون بأيديهم اطراف عباءاتهم ويقولون : الحمد لله على اننا لم نحمل وزرا حين لم نضع مقتل ابننا في رقبة بريء ، وعلى اننا لم نقترف جريمة حين لم تثأر من غير قاتله . وكان اهل المتهم البريء يعلقون على عصا طويلة راية بيضاء يشيرون الى نصوع صفيحتهم من جريمة القيت على عاتقهم ظلما ، وكادوا من اجلها يجلون من ديارهم ويحملون لها الوزر ويخافون فيها من الثأر . اما نحن الذين كنا نحمل في جعبتنا تلك الرصاصة كشاهد

من شهود القضية ، فقد كان في اعماق صدورنا برد تلاشى معه حر ذلك النهار المحرق. كنا سعيدين بشعورنا اننا اسهمنا اسهاما كبيرا في احقاق الحق ، وفي نزع الفتنة بين قبيلتين ، وفي اطلاق سراح انسان كان في سجنه ينتظر حبل المشنقة ، او حبسا لمدة خمسة عشر عاما هي اجمل ايام حياته واغلاها ، يحكم بهذه او بذاك لجرم لم يقترفه وجناية هو منها بريء .



ريفي في باريس

في كل عام تحملني اسفاري بعيدا عن عيادتي في الريف ، الى المدن الكبيرة في بلادنا احيانا ، واحيانا الى عواصم الدنيا البعيدة .

ويقع لي في الاسفار ما يقع لكل طبيب ، وربما اكثر من كل طبيب، من استعانة الاصدقاء والمعارف في البلد الذي احل فيه بخبرتي الطبية. مما يسوقني الى ان امارس مهنتي سائحا ومصطافا او مسافرا في عمل خاص . وهذا ما يجعلني حين امزح اقول لاصدقائي ان كل مؤسسة ناجحة يكون مركزها الرئيسي في العاصمة وفروعها في الاقاليم الا عيادتي، فان مركزها في الريف وفروعها في عواصم الاقطار المختلفة . وبالطبع فان فروع عيادتي في الاقاليم لم تكن تدر عليّ مالا ، ولكنها تريح ضميري وترضي فضولي او انها تكسبني معارف وصداقات جديدة .

ففي الفنادق التي انزل فيها مثلا ، كثيرا ما اوقظ في انصاف الليالي لاسعاف النزلاء الذين يحتاجون الى المعونة الطبية . وهكذا اسعفت مرة في دمشق استاذ جامعة من كولومبو في سيلان من نوبة قلبية ، وقضيت ليلا كاملا في شقة صحافي من سان باونو وجد في حمام غرفة ، فاقد الرشد . كما حدث ان استدعيت بعد منتصف ليل احد الايام من فندقي في جناح بيروت الى احدى مدن الجبل للكشف على صديق لي عرف اني في لبنان فقال لاهله انه لن يغمض له جفن

اذا لم اعط رأيي في مرضه • اما في باريس ، حيث لم اكن احلم بأن امارس طبي بين اهلها ، فقد حدث ان توليت معالجة افراد فرقة تمثيلية بكاملها ، وبصورة خاصة معالجة نجمة الفرقة الاولى • وكانت النجمة العالمية غابي مورلاي •

حصل هذا منذ اعوام بعيدة • في تلك الايام كانت غابي مورلاي قد تعدت طور الشباب ، فكانت في مقام البريما دونا • على ان اسمها كان راسخا في ذهني منذ ايام الصبا حين كنت اراها في الافلام الفرنسية نجمة لامعة فاتنة الجمال ، كما كنت اقرأ اخبارها الشيقة المثيرة • من تلك الاخبار مثلا ان المثري المصري محمد باشا سلطان ، وكانت تربطه بها آنذاك علاقة عاطفية ، بنى لها في اسوان قصرا خاصا لتقضي فيه فصل الشتاء • اما في باريس ، في الفترة التي اتحدث عنها ، فقد كانت تمثل على احد مسارح البوليفار دورا رئيسيا في مسرحية اندره روسان التي عنوانها « عندما يظهر الطفل » • وكنت اتردد كثيرا على ذلك المسرح لصداقة تربطني ببعض ممثليه ، فأقضي السهرة في الكواليس في انتظار انتهاء المسرحية ، حين ارافق اصدقائي لنكمل السهرة في مرابع باريس التي لاتنام •

وفي ذات ليلة جاءني كلود ، صديقي الممثل ، في فترة الاستراحة بين الفصلين وقال لي ان مدام مورلاي تريد ان تراني • لم اكن حظيت بمعرفة غابي مورلاي بين من عرفتهم من ممثلي المسرح ، لان رؤيتها لم تكن امرا يسيرا • قلت لكلود : ماذا تريد مني مدام مورلاي ؟ فضحك وقال : سترى ، تعال نزرها في لوجها • فرافقته الى غرفتها ، اللوج المخصص لها وراء المسرح ، فوجدتها فيه مضطجعة تستريح استعدادا

لدورها في الفصل التالي • استقبلتني بابتسامة عريضة وهي تهتف : شكرا •• شكرا ياسيدي العزيز ! فتطلعت الى كلود مستغربا ، ثم التفت اليها وقلت : شكرا على ماذا ياسيدتي ؟ قالت : على البرشامات التي وصفتها لنا ••• كل أدوية طبيبي الخاص لم تفدني ولكن هذه البرشامات كان لها مفعول السحر ••• لولاها لظللت طريحة الفراش، فبفضلها تراني اليوم اقوم بدوري في المسرحية !

التفت مرة اخرى الى صديقي متسائلا عما تتكلم عنه غابي مورلاي، فرأيته ورائي يبتسم • وهنا تذكرت امر تلك البرشامات • تذكرت ان كلود نفسه شكا لي منذ ايام انه مصاب برشح معند ، فكتبت له وصفة ببرشامات بسيطة التركيب ولكنها سريعة المفعول • وتذكرت ان صديقي قال لي في حينها ان اعضاء الفرقة مصابون كلهم مثله بالرشح • ويبدو انه حين وجد فائدة من علاجي عمم الوصفة على زملائه ، حتى وصل الامر الى غابي مورلاي فتناولتها بدورها • وقطعا ، لو ان كلود استشارني في امر اعطاء العلاج الى غابي مورلاي نفسها لمانعته في ذلك، فمعالجة هذه النجمة الكبيرة مسؤولية لا احب تحملها في بلد غريب ليست لي فيه صلاحية مزاولة المهنة•ولكن الذي جرى ان غابي مورلاي تناولت علاجي ، وانها شفيت ، وان اعضاء الفرقة شفوا من الكريب الباريسي العنيف فاستمرت الفرقة في تمثيلها مسرحية اندريه روسان تلك التي اذكر انها استمرت تمثل اكثر من الف ليلة متوالية •

قلت للنجمة الكبيرة بعد ان عرفت الموضوع : العفو ياسيدتي ، الامر بسيط ، وانا في الخدمة دوما ! قالت : وهذا الذي احببت ان اراك من اجله ••• ارجو ان تعطيني عنوان عيادتك لاتصل بك اذا ما احتجت

الى استشارة طبية . ضحكت وقلت : عيادتي ؟ انها ياسيدتي ليست في باريس ، بل في الرقة . فزوت حاجبها وقالت متسائلة : راكّا ... اين تقع هذه الراّكا ؟ قلت : على بعد نحو من ثلاثة آلاف كيلومتر ياسيدتي ... الى الشرق ، على نهر الفرات . فندت من الفم الجميل، على رغم تجاوز صاحبته سن الصبا ، صيحة استغراب وهي تقول : اوه! ياخسارة ... الا يمكن ان تكون اقرب من هذا ؟

بالطبع لم يكن بالامكان ان تكون عيادتي اقرب من هذا ... اذن لكنت مسرورا . فلقد كنت مسرورا ان كانت غابي مورلاي احدى مريضاتي . وضحكت الممثلة الكبيرة حين استأذنتها مازحا ان اضيف الى بطاقتي ، تحت القابي العلمية ، لقب الطبيب الخاص لغابي مورلاي، واذنت لي . الا اني طبعا لم اضع هذا اللقب الجديد في بطاقتي ، لان بطاقتي لاتحمل في الواقع غير اسمي وحده ، مجردا من الالقاب .



حيّة الهوا ... وعلاجها

يقول المتنبي في احدى قصائده :

هو الحظ حتى تفضل العين اختها
وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

وكذلك الامر في الامراض ، فحظوظها مختلفة في سمعتها بين الناس . بعضها مقرون بالاكابر كمرض النقرس الذي يسمى بداء الملوك لانه كان لايصيب الا اهل السلطان والثراء ، وبعضها يتعوذ البشر بالله من اسمه حين يرد على السنتهم لانه كما يقولون مرض خبيث . ويتساءل الانسان احيانا اين هي السلامة واين الخبث في مرض ما ، مادامت كل الامراض اعداء الانسان تنتهي ، اذا انتصرت عليه ، بقتله او تشويهه او اضعافه ؟ ما الذي يجعل السرطان اسما ملعونا ، لايتلفظ به الناس امام المصاب به الا همسا ولا يذكرونه الا مداورة ، بينما لا يجد احد حرجا من التلفظ بكلمة تصلب الشرايين او ضخامة البروستات او التهاب الكلية ؟

ولكنه الحظ كما قلنا . وربما كان الحظ هو الذي جعل اسم حية الهوا عند الريفيين اسمها ملعونا بينما ظلت اسماء بقية الامراض اسماء نظيفة لاحرج من ذكرها وتردادها . ومع ذلك فان هذا المرض الذي يسميه الريفيون واهل البادية حية الهوا ، او حية الهوى ، ليس الا مرضا

كسائر الامراض ليس فيه من اللعنة او من الخبث شيء الا بمقدار ما يتهاون الانسان في معالجته فيصبح خطرا • او انه في الواقع ليس مرضا واحدا ، بل هو مرضان متباينان : انه اما اصابة في العظم وحده ، واما اصابة في العظم والمفصل معا • في الحالة الاولى يكون هو المرض المسمى التهاب العظم والنقي الحاد ، وفي الثانية يكـون سل المفصل في احـد المفاصل الكبيرة ويدعوه الاطباء الورم الابيض • ويخلط الريفيون بين هذين المرضين ويطلقون عليهما اسما واحدا ، حية الهوا ، لانهما ينتهيان في السوء الى نهاية واحدة مع انهما يختلفان في كيفية البدء ، وفي مقر الاصابة ، وفي طريقة العلاج •

يكون البدء في التهاب العظم والنقي بدءا حادا بألم شديد في احد العظام الطويلة ، في الذراع او في الطرف السفلي ، وبتورم فيه يسببان تحدد حركة المفصل القريب ، وبحمى مرتفعة • اما الورم الابيض ، او سل المفصل ، فانه يبدأ بدءا هينا بألم في احـد المفاصل في الطرفـين ، وبتورم خفيف وضعف عام وحس بالتعب • وفي المرضين ، حين يسير كل منهما الى الازمان بالاهمال المسبب عن الجهل ، يبدو الشبه بينهما كبيرا لغير الطبيب • هناك مريض ناحل شاحب ، اغبر الوجه ، مصاب بحرارة مسائية وتعرق ليلي ، في احد عظامه تورم وتقرح وانصبـاب صديد في بعض الحالات • ويأتيك المريض متوكئا علـى عصا ، او ان اهله يحملونه حملا ويلقونه بين يديك قائلين انه مصاب بحية الهوا •

ان ما يوصل المريض بحية الهوا الى الدرجة المتدنية التي يراهـا فيها طبيب الريف هو الجهل ، في اغلب الاحيان ، وليس المرض نفسه • فكلا المرضين اللذين يسميان بهذا الاسم يشفيان نسبيا بسهولة اذا

عولجا كما يجب ، وفي بدء الاصابة بهما . التهاب العظم والنقي حاد يعالج في ايامه الاولى بمضادات الحيوية ، الانتيبيوتيك ، وبجراحة بسيطة . والورم الابيض من اسهل انواع السل معالجة في البدء ، قلّ ان يلجىء الطبيب الى الجراحة ، لان المعالجة الدوائية مع التثبيت كافيان لشفائه . ولكن هذه السهولة في المعالجة تتعلق بالتبكير فيها ، اعني بالتبكير بعرض المريض على الطبيب . واين التبكير في الريف وقد وقف فيه للمريض بالمرصاد عجائز الحي ليعالجنه باللبخات الحارة والمنفطة ، والمسنون في العشيرة ليتناولوا العضو المصاب بالكي بالحديد المحمى او الحرق بلفافة الخرق الزرقاء ، والشيوخ ذوو اللحى العريضة ليعزموا على المريض المسكين ويبخروه ويبتزوا مافي جيب اهله من مال؟

في احد الايام عرضت علي حالة احد هؤلاء البائسين ، وكان شابا في العقد الثالث من عمره مصابا بورم ابيض في قدمه ، اعني بسل في مفصل عنق القدم . قلت لابيه المرافق له : اسمع ياعم ، لقد اتيت بابنك متأخرا اليّ ... الآن ، بعد ان تورمت القدم الى هذه الدرجة وضعف جسم الصبي ، لابد من ان تعرض ابنك على جراح ... سيثبت قدم ابنك بالجبصين ، وربما احتاج الامر الى عملية ، الا ان الامل في شفائه يبقى كبيرا . فتردد الرجل متهيبا من سماع ذكر الجراح والجبصين والعملية ، وادار رأسه حوله . وكان حوله ناس كثيرون ينتظرون دورهم ليتقدموا اليّ لمعاينتهم . فسمعت عجوزا من بينهم تقول للرجل بصوت خفيض : هذه حية هوا صابت ابنك ... فهل لففت رجل ابنك بكرش الرخمة ؟ قال والد المريض : لا . قالت العجوز : اذن اسمع مني ولاتذهب الى الاطباء ، لف رجل ابنك بكرش الرخمة والشفاء

على الله ! رفعت رأسي الى العجوز فعرفتها . كنت اعرفها جيدا ، فقلت لها : انت يا امرأة ، يازوجة حنظل الشكطي ... حميد ، ابن ابنك ، الم تلفّي قدمه بكرش الرخمة ؟ قالت : بلى والله . قلت : ومـاذا جرى لقدم حميد بعد ان لففتموها بكرش الرخمة ؟ قالت اخذناه الى حلب، وقطعناها في المستشفى . قلت : وبعد ذلك ؟ قالت العجوز محرجـة : بعدها قطعنا ساقه من تحت الركبة ثم ... ثم توفاه الله ' قلت : وتريدين من الرجل ان يلف قدم ابنه بكرش الرخمة لتقطع قدمه كما قطعت قدم ابن ابنك ، ثم لتقطع ساقه من تحت الركبة او من فوقها ، ثم ليموت بعدها ... اما تخافين الله ؟ !

والواقع ان الامر لم يكن يتعلق بمخافة الله او بقلة مخافته ، وانما بأن تلك العجوز ، زوجة حنظل الشكطي ، كانت مؤمنة بفائدة كرش الرخمة في حية الهوا على الرغم مما رأته من عواقبها في قدم ابن ابنها ثم في حياته . والرخمة ، لمعلومات من لايعرفها ، طائر بحجم النسر ، جارح، ولكنه محتقر بين الطيور الجارحة . فاذا صاده اهل البادية استخرجوا كرشه ولفوا بها البؤرة الملتهبة في احد الاعضاء ، لأن هـذه الكرش بتخزينها حرارة الالتهاب تسارع في تفجير القيح ، وفي طرح الاجسام الغريبة والصديد . ولو اني اردت التفصيل لقلت لوالد الفتى المريض ان كرش الرخمة تفيد في حية الهوا اذا كانت التهابا في العظم والنقي ، لانها تسارع في طرح شظايا العظم التي تتموت في بؤرة الالتهاب ، الا انها تضر في حية الهوا اذا كانت سلا في المفصل ، كما هي حال هـذا الفتى ، لانها تنشط جرثومة السل وتسهل تخلخل عظام المفصل وتزيد في التهابه ...

كان ممكنا ان اقول هذا لوالد المريض ، الا اني لم اقله . فلو اني فعلت لنسي السامعون ماذكرته من مضار كرش الرخمة ولطار بينهم اني اشدت بفوائدها في معالجة هذا الداء الخبيث ، حية الهوا ،فاضيفت الى سجل محسناتها شهادتي الموثوق بها في هذه الارجاء . لذلك فاني لم اصنع غير ان اسكت تلك العجوز ، مغتنما فرصة اقرارها بما جرى لحفيدها بعد اتباعها هذه الوصفة القتالة ، لاقناع الاب بأن يلجأ بابنه الى اتباع الطريقة الصحيحة في المعالجة قبل ان تقضي عليه حية الهوا ، او حية الهوى !



اشهـــد ياطبيـب

(١)

مضافة الاسرة كانت غاصة بالحضور في تلك الامسية ، وهي آخر امسيات المأتم التي جرى التقليد بأن تختتم بقراءة المولد وانشاد المدائح النبوية . في الساحة الضيقة المكشوفة كـان الجلوس يزحم بعضهم بعضا بالاكتاف . وفي الصدر كان المشايخ ، ومن بينهم الشقيقان السيد محمود والسيد محمد ، يجلسون يواجههم المريدون . وامام السيدين كانت حزمة من الاسلحة ، اسياخ حديدية طويلة مدببة ، وخناجر ، وربما كان هناك سيف او سيفان .

حين لمح بعض الحاضرين حزمة الاسلحة يحملها احد مريدي السيد محمد رجوه ان لا يحدث في هذه الليلة ما يخيف الناس ؛ غير ان السيد قال : لابد ان يتم ذلك ... في هذا المكان ذبح ابونا في الماضي رجلا ، وعلينا ان نقدم برهاننا لمن لا يصدقون . وهكـذا ادرك الجميع ان « الضرب » سيجري في هذه الليلة .

وقد جرى ذلك حقـا في آخر السهرة . كنت اجلس في زاويتي المعتادة ، الزاوية الشرقية الجنوبية من الساحة المربعة ، أرى المشايخ في مواجهتي وهم يقرعون الدفوف ويرفعون عقائرهم بالاناشيد الدينية التي كانت انغامها وكلماتها توغل في الحماسة شيئا وراء شيء . امـا

المريدون فما كنت أرى الا ظهورهم ، أو أرى رؤوسهم المتقاربة في تزاحمها ، وهم يتمايلون اثنـاء ترديدهم الاناشيد • وكلما ازدادت حماسة تلك الاناشيد احتد تمايل المريدين ، وارتفعت بـين اصوات المنشدين صيحات بلفظ الجلالة : « الله ! » ، يطلقها من تستبد بهم الحماسة ويأخذهم الحال ، وقد تملك بدنهم الاختلاج واستولى على اطرافهم الارتجاج • وفجأة علت همهمة الناس حولي وتطاولت الاعناق امامي وورائي ، اذ قام احد الجالسين امام السيدين محمود ومحمد فتناول حزمة الاسلحة وأخذ يوزعها على المريدين حوله •

اصبح مؤكدا ان « الضرب » سيبدأ • و «الضرب » هو طعن المريد نفسه بالشيش ، سيخ الحديد المدبب الرأس المضلع النصل ، او بالخنجر او بالسيف، حين تأخذه الحال• توترت اعصاب الحاضرين، وداخلت نفوسهم الرهبة ، بل ان بعضا منهم ترك المضافة جزعا • وبينما كانت أيدي السيد محمد ورفيقه على الدف تلاحق القرع على دفيهما وحماسة المنشدين تبلغ اشدها ارتفعت من حناجر كثيرة شهقات الدهشة وسمعت الاصوات تتعالى حولي قائلة : ضربوا أنفسهم ••• انغرس الشيش في بطنه ••• انظروا اليه ••• خرج من خاصرته ••• انظروا الى الآخر •••

لم اكن أرى ما يجري بدقة ، لاني وان كنت مددت عنقي لاحسن التطلع لم اغير جلستي او اقوم منها واقفا على قدمي ، كما ان الجمع المحتشد امامي كان يحول بيني وبين الرؤية الواضحة • على اني كنت أرى حركة أيدي المريدين وهي تدفع بالاسلحة الى بطونهم ، كما كان الناس من حولي يرون ما يحدث بتفصيل ودقة • وفجأة انفرج الجمع

الكثيف امامي مخليا الطريق للمريدين الذين ضربوا انفسهم كي يجولوا بين الحضور والاشياش مغروسة في اجسادهم • كانوا ثلاثة رجال توزعوا في جنبات الساحة ، وتقدم واحد منهم متجها في ناحيتي ، حتى اذا اصبح امامي صاح بي السيد محمد من مكانه البعيد :

ــ انظر يا طبيب ••• اشهد يا طبيب !

كان عليّ ان اشهد • فحلقة هذا المساء لم تعقد الا ليبرهن السيد محمد للمكذبين ان « الضرب » صحيح ، وان لله رجالا اذا قالوا فعلوا• كان الرجل الذي تقدم الي متوسط العمر ، هزيل البنية ، شاحب الوجه • وكان يحمل ثوبه بيديه رافعا اياه الى اعلى الصدر ، وقد تعرّى صدره وبطنه حتى مشد السروال • في اعلى البطن الى اليمين ، تحت الاضلاع ، اعني في الناحية الكبدية قريبا مما يسميه الاطباء النقطة المرارية ، كان الشيش الذي يبلغ قطر مقطعه نحوا من سنتمتر واحد مغروسا بصورة افقية تقريبا ، عموديا على سطح البطن • كان مغروسا في البطن ونافذا من الظهر • من امام كان نصل الشيش بطول ما يقارب المتر ، اما من وراء فقد كان بارزا من الناحية الكلوية بطول اكثر من عشرة سنتمترات • لم اكتف بالرؤية ، بل امسكت بالشيش من ناحيتيه بكفي ، امام البطن ووراء الظهر •••

اتم المريدون الثلاثة جولتهم وعادوا الى شيخهم • ومن مجلسي رأيت الاسياخ الحديدية تنزع منأجساد اولئك الثلاثة،ورأيت زملاءهم يمسحون وجوههم ويقرأون على رؤوسهم • وسمعت من يقول ان المريد الذي كان أمامي قد تقيأ دما بعد ما نزع السيخ من بطنه ، فهببت من مكاني غير ناس اني طبيب عليه واجب الاسعاف • الا ان السيد

محمد هتف من مكانه قائلا : ليس هذا شيئا ... كان فلان مريضا قبل ان يضرب نفسه ...

وانتهى الحفل . وحين مرّ المريدون امامي منصرفين استوقفت ذلك الرجل وطلبت منه ان يرفع ثوبه لارى مكان الضربة . كان وجهه على شحوبه ، اما مكان الطعنة فقد رأيته تحت الاضلاع كخدش مدور ليس عليه من اثر الدم غير قليل . اما الجلد فكان ملتئما . ارتسمت على شفتي الرجل ابتسامة خفيفة كأنه كان يتحدى بها طبي وعقليتي العلمية، وارخى ثوبه منصرفا .

قال لي جاري بعد ان انفضت الحلقة : ما رأيك ؟ قلت : انا شاهد على ما رأيت . قال : وهل تـُصدّق ان السيد توفيق ، والد السيدين محمود ومحمد ، قد ذبح منذ اربعين عاما رجلا في هذه المضافة حتى فصل رأسه عن جسده ثم غطى الجثة ورأسها بعباءة وظل يضرب بالدف فوقها حتى قام المذبوح سالما ؟ قلت : ذلك شيء لم أره ... ما رأيت هو آلة حادة وقاطعة تدخل بطن رجل مخترقة احشاءه ، ربما مست كبده او كليته ، ثم لا ينزف الرجل ولا يتألم ، وانما يسير ويتصرف تصرف السليم الذي لم تخدشه ابرة . هذا مـا رأيته ، وهذا مـا اشهد عليه ....

* * *

اشهـــد ياطبيـب

(٢)

مشهد الضرب الذي وصفته سابقا كان اول مشهد حضرته ودققت فيه لا كمتفرج عادي ، بل كشاهد متفحص • قبل ذلك سمعت عـن « الضرب » حكايات لا تتقبلها عقليتي العلمية التي احملها كطبيب درس علوم التشريح والفيزيولوجيا والباتولوجيا وآمن بصدق ما تقول • مـن تلك الحكايات حكاية الرجل الذي ذبحه السيد توفيق ، والد السيدين محمود ومحمد ، في المكان نفسه ، اعني في مضافة الاسرة . منذ اربعين عاما ، وعاد بعدها الى الحياة • ومنها حكاية الشيخ عبدالله الخليل التي لا يزال يرويها لنا شهودها مـن المسنين والتي جرت في منازل اسرتنا ايضا في البادية قبل ان أولد انا • فقد اوقدت نار عظيمة ووضع فيها قضيب طويل وغليظ من الحديد ، مدبب الرأس ، حتى اذا احمر القضيب من الحرارة حمله الشيخ عبدالله بيديه بعد ان نضا عنه ثيابه الا السروال ، وغرسه في جوفه عند السرة ، فاخترق بطنه وخرج مـن ظهره • يقول الرواة انهـم لا يزالون الى اليوم يشمون بانوفهم رائحة الشواء المنطلقة من احتراق لحم الشيخ بالقضيب المتقد• بعد ذلك قام الشيخ ، والقضيب منغرس في جسده ، ودار على الحاضرين حتى وقف امام سرحان آغا ، قائد الجندرمة الذي كان تكذيبه لحكايات الضرب سببا لعقد تلك الحلقة ، وطلب منه ان يسحب القضيب بيده •

امتثل سرحان آغا لطلب الشيخ عبدالله ، وقد شحب وجهه وارتعشت اوصاله من الرهبة ، ولم يتمكن من اخراج القضيب الا بعد ان احترقت اصابعه برغم لفّه لها ببعض الثياب . دثّر الشيخ بعدها بعباءة ظل جسده يتفصد عرقا تحتها لفترة قصيرة ، ثم لم يلبث حتى خرج من تحتها وجلس بين الحضور سليما معافى ...

هذه الحكاية الاخيرة سمعتها من اكثر من راوٍ ممن شهدوا وقائعها باعينهم . بعضهم قال لي انه كان بين الذين روّحوا باطراف اثوابهم على النار كي تزداد اشتعالا . وكلهم اكد لي انه بعد ان غرس الشيخ ذلك القضيب الملتهب في بطنه تواثب اولاده الصغار صبايا وبنات الى النار يخوضونها ويتقلبون على جمرها كأنهم يتقلبون على بساط من عشب الربيع . بعد كل رواية لهذه الحكاية وامثالها كنت أُسأل : هل اصدّق هذا ؟ وما هو التعليل العلمي لهذا ؟ لم اكن اقطع بقول . كنت اجيب اني استصعب تصديق ما يروونه ، ولكنني لا اجرؤ على القول انه غير ممكن الحدوث ... فانا اعرف الناس بأن علمي الذي تعلمته لا يمكن ان يحيط بكل شيء في هذه الحياة ، كما انه لم يصل الى درجة يجد فيها تعليلا لكل شيء في هذه الحياة .

ذلك كان جوابي حين كنت اسأل عن وقائع رواها غيري ولم ارها انا . ولم يتغير هذا الجواب كثيرا حين رأيت السيخ الحديدي في بطن المريد ، وحين امسكت باصابعي على نهايته النافذة من ظهر ذلك المريد. لقد ظل عجزي عن التعليل كما كان ، وان كانت صعوبة التصديق ، بعد ان تحققت حسيا مما جرى ، قد خفّت وحل محلها اليقين .

بعد اول حادثة شهدت فيها « الضرب » بعيني ، كثرت رؤيتي

لامثالها • كان الضاربون يقومون من جانبي ، حينما يشتد قرع الدفوف ويغلي الحمــاس في الصدور ، فيغرسون في خواصرهم الخناجر او يبعجون بطون انفسهم بالسيوف • وكلما زارنا قريبنا السيد عايد ، وهو شيخ ذائع الصيت يقيم في قرية مجاورة لدير الزور ، كانت زيارته مناسبة يتبارى فيها الضاربون امامه من ابنائه وابناء عمومته المرافقين له ، او من المشايخ الحاضرين ، وهو في مقدمة الضاربين • حتى ليظن الانسان ان الحفل قد انقلب الى مجزرة لن تنتهي الا بموت واحد او اكثر من هؤلاء المشايخ او مريديهم •

على أن احــدا لم يمت امامي حتى الآن ممــا جرى في امسيات الضرب ، كما اني لم اجد احدا قد تأذّى بمقدار خدش من طعنات تلك الآلات القاطعة الجارحة ومن جولاتها في الاحشاء • وفي احدى المرات رأيت رجلا اسمه علي ميّت — وهــذا اسمه منذ نُبش قبره واخرج منه بعد ان دفن خطأ لانهم ظنوه مات بينما كان في غيبوبة — رأيت علي ميّت هذا يغرس في احدى عينيه سيخا حديديا ، فيدخل هذا السيخ في كرة العين حتى يثبت فيها قائما ، ثم يقوم جائلا بــين الحاضرين والسيخ ثابت في داخل عينه ، في بياض تلك العين • علي ميّت ضعيف البصر ، فاقد البصر في احدى العينين والعين الاخرى مكسوة بسحابة بيضاء يرى فيها بصعوبة ، وقد ادخل السيخ في عينه شبه السليمة هذه ودار بها دقائق كثيرة قبل ان ينزعه منها ويعود الى مجلسه بين الحاضرين كأنه لم يفعل بنفسه شيئا •

سيتساءل كثيرون ايمكن لهذا ان يكون صحيحا ؟ هل يجوز لي ، أنا الطبيب ذا العقل الموضوعي والثقافة العلمية ان اروي حكايات كهذه؟

لقد شك كثير من المتعلمين ممن يؤمنون بلدتي،الرقة،بهذا الذي تحدثت بــه ولم يمنعهم من تكذيبه جازمين الا قول الناس اني كنت شاهدا لوقائعه . وطلب بعضهم ان يحضروا وقائع « الضرب » فاحضرتهم اياه. وفي ذات مرة سال بعض الدم من جرح احد الضاربين فسارع زميلي الطبيب الجراح الذي حضر الامسية ليتحقق بنفسه مما يجري ، سارع زميلي لاسعاف الجريح فأبعده الرجــل بيده وهو يقول : لا تفرح بمعالجتي ... هذا ليس شيئا ...

وحقا لم يكن ذلك شيئا مهما . اذ توقف نزيف الدم بسرعة . وقد وجدنا انا وزميلي ذاك ان تعليل توقف النزيف ، او انعدام النزيف ، مثل تعليل الجرأة على ضرب النفس وتحمل الألم ، امر سهل . ولكن كيف نعلل اختراق الآلات القاطعة للاحشاء في مناطق خطرة ، مثل مناطق الكبد والكلية والامعاء ، بدون ان تترك تمزقا او انثقابا او التهابا ؟

في الواقع لقد عجزنا عن التعليل واقررنا على انفسنا بذلك العجز ، ولم نستطع في كل ما رأيناه اكثر من ان نكون عليه شهودا .

* * *

عيد آخر

عمل الطبيب في الريف له من المشاق وفيه من المزعجات ما لاتقارن به متاعب طبيب البلدة الكبيرة المتخصص او طبيب المستشفى ذي العمل المنظم المستقر والنظيف . الا ان لذلك العمل ، عمل الطبيب الريفي ، مباهجه الخاصة التي كثيرا ما تتولد من قلب المشاق والمزعجات ، كالماء الزلال ينبجس في قلب الصحراء المقفرة فيخلق فيها الظل والخضرة والطراوة .

في بلدتي الريفية الصغيرة ، قبل ان تزدحم باهلها وبالوافدين اليها من كل حدب وصوب فيصبح فيها من الاطباء نيف وعشرون طبيبا ، في بلدتي هذه كنت الطبيب الوحيد الى جانب زميل آخر هو طبيب الحكومة الرسمي . ولأن الناس في بلدتي ومنطقتها الواسعة لايعرفون للطبيب وقت راحة او يوم عطلة ، دأبت على ان اغادر البلدة كل عيد لاعطي نفسي راحة كنت استحقها بعد عمل متواصل في الليل والنهار وفي كل ايام الاسبوع وعلى طول السنة . الا ان زميلي طبيب الحكومة رجاني في احد الاعياد ان لا اغادر البلد حتى اغطي غيابه اذا ماحدثت حالة مستعجلة ، لانه كان مضطرا الى السفر الى دمشق حيث كان اهله. ولم استطع ان ارفض رجاء الزميل ، وبقيت في البلد في تلك المرة .

في ليلة العيد بالذات طرق علي الباب بعد منتصف الليل طارق جاء يخبرني بأن امرأة في الحي الغربي من المدينة تعسرت ولادتها وهي تطلب معونتي . خرجت مع الطارق قاصدا عيادتي لآخذ منها ما احتاج اليه في مثل هذه الحالة ، فلما بلغت باب العيادة وجدت عندها سيارة تحمل امرأة في حالة مخاض متوقف ، اي ان طلق الولادة بدأ عندها ثم خفت حدته . تلك السيارة كانت قادمة بالمرأة من نحو مائة كيلو متر ، من الحدود السورية التركية ، اذ لم يكن في كل هذه المسافة طبيب في تلك الايام . زرقت هذه الامرأة بحقنة دواء تعينها على امرها ، وتركتها في سيارتها على ان اعود اليها لاتمام العناية بها بعد زيارة المريضة الاولى التي جاءني الطارق من أجلها . وحين بلغت منزل هذه وجدتها في حالة سيئة تستدعي توليدها بملقط الجنين اذا لم يتحسن وضعها في خلال نصف الساعة القادمة . فبدأت اتهيأ لتطبيق ذلك الملقط ، اعني لتوليد تلك الحامل بالآلة . وفي هذه الاثناء طرق باب المنزل الذي كنت فيه ، وكان الطارقون اناسا لحقوا بي ليستدعوني الى حالة عسر ولادة ثالثة ، كانت هذه المرة في الحي الشرقي ...

كان الليل متقدما ولاسيارة في البلد ، ولكني حمدت الله على ان الجو كان دافئا ولا وحل في الطرقات يعيقني عن الاسراع في السير . تركت المعسرة التي كانت بين يديّ موقتا ، وقصدت الحي الشرقي الى حيث كانت المعسر الثالثة تنتظرني . وبفحص هذه وجدتها قادرة على الانتظار وليس في حالها مايقلق ، فزرقتها بكذلك بما يعينها وتركتها على ان اعود اليها بعد ان اتم مهمتي التي بدأتها مع تلك التي في الحي

الغربي . وقد وجدت هذه بعد ان بلغت دارها في حالة التوقف التي تركتها فيها ، اعني ان تطبيق ملقط الولادة عليها كان امرا لابد منه . ولم يكن في بيت هذه المعسر سرير او مايشبهه ، فاتخذت من باب خشبي مهمل ملقى في ارض الدار سريرا ركزته على صفائح تنك للمؤونة وجدتها عند الجيران ، وطبقت الملقط على رأس الجنين في ظلام الليل ، ودون اي معين ذي خبرة فنية ، وفي بيت فقير كان ايجاد الماء الساخن فيه مشكلة . ومع كل هذا ولدت المعسر بسلام مولودة انثى ، صحيحة ومعافاة ...

خفّت بولادة تلك الطفلة اعباء تلك الليلة المتعددة عن كتفي ، فتركت الوالدة لاهلها ونساء الجيران وهرعت لاتفقد مريضتي" الاخريين . وحين بلغت العيادة تناهى الى سمعي بغام وليد وضعته تلك القادمة من الحدود السورية التركية في سيارتها ، دون ان تنتظر حضوري . اسرعت في هذه المرة خفيف الخطى نحو الحي الشرقي حيث كانت المعسر الثالثة ، ولكني قبل ان ابلغ منزلها تلقاني البشير ، المريح ، يخبرني ان هذه ايضا وضعت بسلام . اوف ! ... قلتها لنفسي بصوت مسموع ، او خيل الي اني قلت هذه الكلمة بصوت مسموع بعد ان تحررت نفسي واعصابي من نصب هذه الليلة . وتطلعت حولي ، فوجدت انوار الفجر تضيء الجانب الشرقي من السماء . لقد انقضى الليل ولم انم .

كانت ليلة عيد كما قلت . عدت الى داري مجهدا ، ولكني لم استطع النوم . لم يكن هناك وقت للنوم ، فقصدت المسجد عند طلوع الشمس لاشارك المصلين صلاة العيد ، متعبا ، غير ان نفسي كانت

مملوءة بالرضى ، وبالسعادة : لشعوري اني بوسائلي القليلة والفقيرة، وبعلمي الزهيد ، قد اعدت في هذه الليلة الطمأنينة والبشر الى نفوس افراد اسر ثلاث ، ومسحت الالـم والقلق عـن مشاعر امهات ثـلاث وازواجهن ، واعنت ثلاثة مواليد جدد على ولـوج باب الحياة بيسر وصحة .

وكان هذا لي ، بعد تلك الليلة الليلاء ، عيدا آخر .



الوعيـــد

قلت في الفصل السابق ان عمل الطبيب في الريف له مـــن المشاق والمزعجات مالاتقارن به متاعب طبيب المدينة الكبيرة . وازيد هنــا ان المشاق والمزعجات تختلف اختلافا كبيرا بين ان تكون ريفية الطبيب طارئة ، اعني ان يكون الطبيب حضريا عمل في القرية كطبيب موظف ، او لتأدية مايسمونه في سورية خدمة الريف الالزامية ، او باحثـا عـن رزقه في مكان تقل فيه المزاحمة ليعود بعدئذ الى مدبنته فيفتتح فيها عيادة دائمة ، وبين أن يكون ذلك الطبيب ريفيا اصيلا عاد الى قريتـه او بلدته الصغيرة ، بعد ان تعلم ، ليستقر فيها ويعيش بين اهلها ، وهم اهله ، كي يردّ عليهم ماتعلمه في خدمة ثابتة ودائمة .

وانا طبيب ريفي اصيل ، ولادة ومنشأ وعملا . لا اقول هـذا في معرض الفخر طبعا ، بل ربما قلته في معرض الشكوى . فما من شك في ان المزعجات التي اتلقاها انا وامثالي من الاطبـاء الريفيين الاصلاء اكثر بكثير من تلك التي يتلقاها من سميتهم بين زملائـي بالريفيـين الطارئين . وهناك من يظن ان ريفيّتنا الاصيلة هي عامل نجاحنا فـي عملنا ، اذا كنا ناجحين فيه . اقول هذا لاني رأيت كثيرا ممن يشاهدون اقبال المرضى الكبير على عيادتي في بلدتي يردونه الى كوني «ابن بلد»، أو لأني من « العشائر » ، أو لأن شعبية قبلية خاصة بي هي التي تسوق المرضى الى ترك الزملاء الآخرين واستشارتي انا . وليس هذا التعليل

من الصواب في شيء . فانا لازال اذكر كيف كان اهـل بلدي ، حتى اشدهم قربا اليّ ، لايثقون بابنهم الحديث المعرفة القليل التجربـة ، الذي هو انا ، تلك الثقة التي تحملهم على ان يضعوا بين يديه صحتهم وحيواتهم . كانوا ، في اول سني عملي الطبي ، يقصدون طبيب البلدة الآخر لمجرد انه طبيب غريب ، تحيط به هالة المجهولية . « من عرفك صغيرا لم يوقرك كبيرا » ... « زامر الحي لايطرب » ... اقـوال تصدق في هذا المجال كل الصدق .

وحين تجيء الثقة يأتي معها العناء ، وتأتي الخسارة . فالدالّـة ، وقلة الكلفة ، والتهاون في التعويض عـن الاتعـاب ، تسبب للطبيب الريفي الاصيل مزعجات يقلّ تعرض الطبيب الريفي الطارىء لهـا . على اني لا اعني مزعجات من هذا النوع في ما اكتبه اليوم ، وانما اريد ان اتكلم عن ضرب منها لايخطر ببال ، والطبيب الريفي الطارىء امين منها ، مثل هذه الواقعة التي مرت بي منذ سنوات عديدة .

ففي ذات يوم ، منذ نحو من عشرين عاما ، جاءني من يسعى اليّ راكضا ليخبرني ان أحد أقاربي الادنين دخل في شجار مع فتى من أهل البلدة ، وان قريبي طعن ذلك الفتى في جنبه بسكين او خنجر طعنة بالغة . سألت عن الطعين اين هو ؟ فأجابني المخبر بأنه في مستوصف الحكومة ، وطبيب المستوصف غير موجود ، وان عليّ ان اسرع لاسعافه لأنـه ينزف من جنبه نزفا غزيرا ...

اسرعت الى المستوصف حيث كان جمهور كبير قد تجمع حـول البناء وفي داخله ، فتخلصت من الناس ودخلت غرفة الطبيب . كـان الفتى الجريح ملقى على الارض والدم ينزف من خاصرته بغزارة حقاء .

فانحنيت اتفحص اصابته ، فوجدتها طعنة بآلة حادة قاطعة في الجنب الايسر ، نافذة بلاشك الى الرئة ، ولكنها متجنبة القلب • وكان هناك ممرض يحاول اسعاف المريض قدر استطاعته ، فأشرت عليه بما يعمل ، ثم توليت انا اتمام العناية به • وحين رفعت رأسي وجدت اخا الطعين الشقيق واقفا ورائي ، وقد وصل الى المستوصف اثناء انهماكي في العمل ، وهو يحدق بعينين جامدتين الى الدم النازف من الجرح في جنب اخيه •

اخو الطعين كان صديقا حميما لي وزميلي في دراستي الابتدائية في مدرسة بلدتنا الصغيرة • واذ رآني استقمت من انحناءتي تطلع الي وعلى ملامحه اثر انفعال عنيف هو مزيج من الحزن والتألم والحنق • الطعين اخوه ، والطاعن ابن عمي ••• ونحن في بيئة تسودها الاعراف القبلية التي بموجبها يعتبر قريب الجاني شريكا في الجناية ، ويطلب فيها الثأر من اقارب الضارب حتى الجد الخامس ! نقل الرجل نظره بين جسد اخيه الملقى على الارض والمصبوغ بالدم وبيني ، ثم قال لي امام الحاضرين الذين كانوا يملأون الغرفة :

ــ يا عبد السلام ••• اذا سلم الله اخي ، فان جرحه وما نزف من دمه ، وكل ما تكلفه اصابته من مال فداء لك ••• اتنازل عنه كرمالك • اما اذا مات أخي من هذه الطعنة ، فوالله لن اقتل به انسانا غيرك •

ماذا يمكن ان يقال في هذا الموقف ؟ على رغمي وجدتني ابتسم ابتسامة خفيفة ، ابتسامة بين الدهشة والسخرية المرة • فالواقع اني في تلك الدقائق كنت بعيدا كل البعد في تفكيري واحاسيسي وتصرفاتي عن المدلول العشائري لهذا الحادث الذي جرى بين ابن عمي وشقيق

صديقي • كنت في تلك الآونة طبيبا منصرفا كل الانصراف الى اسعاف جريح في حالة خطرة ، احاول الاحتفاظ بكل قطرة من دمه لئلا تضيع هدرا قبل ان احيله الى المستشفى في البلدة البعيدة ، حلب • ولذا كان كلام صديقي جديرا بأن يبعث تلك الابتسامة الى شفتي ، كما كان جديرا ان يسوقني الى كلام لم يكن ذلك الظرف محله • غير اني فطنت الى اني في بلدتي ، واني ايا كانت منزلتي من العلم والتفكير والقيمة الاجتماعية ، ابن هذه البلدة ، لا استطيع التبرؤ منها او التهرب من اعرافها • فتمالكت نفسي عن الابتسام ، وعن التعقيب على ماتفوه به صديقي من كلمات ، وانصرفت من جديد الى الجريح اتابع اهتمامي به •

حدث هذا منذ عشرين عاما كما قلت • ولقد قصصت حكاية هذه الواقعة مرات كثيرة على الاصحاب والمستمعين ، في المناسبات التي كان يدور فيها الحديث حول حياة الاطباء في الريف وخصائصها ومشاكلها• وفي كل مرة كنت اروي فيها كلمات الوعيد التي قالها ذلك الصديق وهو واقف على رأس اخيه ، كان السامعون يسألونني :

ـ وماذا جرى للفتى ؟ هل مات من تلك الطعنة ؟

فكنت اضحك ، ودون ان اعلق على احتمالات تحقيق ذلك الوعيد اقول :

ـ ولماذا تسألون ؟ اما ترونني حيا امامكم ؟

* * *

من يمرض ؟ ومن يموت ؟

في المجتمعات الريفية ، ولاسيما في ريف البادية ، ينظر الناس الى بعض التظاهرات العاطفية نظرة استصغار ، ويعتبرونها غاضة بقدر الرجال • وتصر ممرضتي دوما على ان تجعل الرجل الذي يأتي في رفقة امرأته لمعالجتها ، تصر دوما هذه الممرضة على ان تجعل الرجل يحمل طفله ، الذي تحمله في العادة امه ، وان يدخل به غرفة الرجال ريثما اكمل انا معاينة الام • فاذا تلكأ الرجل وحاول التهرب صرخت به الممرضة : احمله ••• اليس هو ابنك ؟ لماذا تستحي من حمله ؟ فيحمل الرجل طفله متأففا ، هذا اذا لم تعرض احدى الموجودات في غرفة معاينة النساء ان تتولى حمل الصغير ، قناعة من النساء كلهن بأن حمل الاطفال وتهشيشهم ، وان كان لدقائق قليلة ، امر ليس من وظيفة الرجل، وفيه انتقاص لقدره •

وحب الرجل لامرأته عاطفة مشروعة ، ومحمودة ، ولاشك في وجودها في المجتمعات كلها ، حضرية كانت او ريفية • غير ان ثمة فرقا بين موقف الريفي وموقف الحضري في تصريح كل منهما بعاطفته تجاه امرأته • قد يرائي الحضري ، فيدعي امام الناس شغفا بزوجته يفوق تعلقه الحقيقي بها ، بينما يتظاهر الريفي باللامبالاة وبفتور عاطفته نحو حليلته ، ولو كان تعلقه بهذه الحليلة مفرطا ، وذلك لئلا يتهم من زملائه الرجال بالخور والضعف المشين امام المرأة • فاذا اكثر واحد منهم

توصيتي بالعناية بزوجته ، وابدى عليها قلقا شديدا . قال له لداته الذين يستمعون اليه : الى هذه الدرجة انت متعلق بها ؟ ام لعلك خائف منها؟ يتضاحك الرجل عادة لسماعه هذا الكلام ويقول معتذرا بأنه لايخاف عليها بل على الاولاد ... يخاف ان تذهب ، اي تموت ، وتترك الصبية الصغار في عنقه ! وربما اعتذر بعذر آخر فقال : اخاف على مادفعته لاهلها من نقد ... من اين لي بعشرة آلاف ليرة لادفعها مهرا لزوجة اخرى؟ذلك اننا في منطقة من الريف لاتدخل فيه المرأة بيت زوجها اذا لم يتكلف من اجلها مبلغا من المال في هذه المرتبة ، مهما بلغ الخاطب من الفقر . كل هذه اعذار ، وهي ليست صحيحة دوما . فما من شك في ان العلاقة العاطفية ذات دخل في قلق كل زوج على زوجته ، وان تستر الرجل على هذه العلاقة باعذار الخسارة المادية او الخوف على مصير الاولاد .

اذكر ان واحدا من هؤلاء القلقين على نسائهم اكثر في احدى المرات عليّ اسئلته التي ضمنها قلقه وتخوفه على حياة زوجته من الداء الذي جاءتني لتتعالج منه . هذا الرجل ، في الواقع ، لم ينكر انه يحب زوجته ، ولا انه يخشى ان يفرق بينها وبينه هذا المرض الذي هي فيه . وعلى الرغم من تهدئتي لقلقه وتطميني له ظل يردد علي استفهاماته مكررا هذه الكلمات : اخاف عليها يادكتور ... اخاف ان تموت ! ضحكت وقلت له : لاتخف يارجل ... مرضها عارض ، وسيزول بعد المعالجة باذن الله . قال بأسى : صحيح ... ولكنني خائف عليها من الموت .. جسمها ضعيف . قلت : ربما كان جسمها ضعيفا ، ولكن النساء يتحملن المرض اكثر من الرجال . يموت الرجال قبلهن دوما ويبقين هن على قيد

الحياة ... هل سمعت برجل ارمل ؟ كل الارامل نساء ، بمعنى انهن دفن ازواجهن قبلهن !

كان ماقلته للرجل حجة جديدة ، حجة قاطعة لم يسمع بهـا قبلا . وقد افلحت هذه الحجة في تهدئته اكثر من كل ما ذكرته قبلا مما هو مستند الى تشخيصي للمرض ومعرفتي بدوائه . فانبسطت اساريـره بعض الشيء ، الا انه لم يلبث حتى عبس من جديد وهو يقـول : كلامـك صحيح ... ما اظنها الا تدفنني قبلها ! كأن فكرتي التي أوحيت بها اليه هاجت به اسى من نوع آخر . ضحكت عندئذ انا مجددا وتذكرت كلمة موظف تركي كان في بلدنا في الزمن القديم . كلما مرضت زوجة ذلك الموظف العصملي واتعبته مداراتها في بلدتنا المنقطعة ، التي لم يكـن فيها طبيب وليس له فيها اهل ، كان يقول : ياربي ... اذا كانت القضية قضية مرض فاجعل يارب مرضها بي ، اما اذا كان الموت ، فلتمت هي !

ماذكرته في اول كلمتي من الاعتبارات ناجم بلا شك عـن النظرة الدونية التي ينظر بها الرجل في المجتمع الى المرأة والى دورهـا فـي الاسرة ومكانتها في الحياة . وهي اعتبارات سائرة الى الزوال شيئا بعد شيء ، وان كان سيرا بطيئا . ويضحك بعض الرجال حين يمازحهـم قرناؤهم امامي منتقدين شدة اهتمامهم بزوجاتهم ، ومصاحبتهم اياهن الى عيادة الطبيب لاقل شكوى يشتكين منها ، فيقولون في جوابهـم على هذه الانتقادات : ماذا نستطيع ؟ اصبح الحكـم اليـوم في يـد النساء ... لم يعد احد قادرا على عدم الاستجابة لطلبات زوجته او على ضربها كما كان يفعل آباؤنا ... اذا فعل احد منا ذلك فان الاتحاد النسائي موجود !

ذلك ان الاتحاد النسائي ، والمنظمات النسائية المشابهة في المجتمعات المختلفة ، اثبتت وجودها في الحالات التي اشتكت فيها المرأة من رجلها ، فناصرت الضعيفة المظلومة على القوي الظالم ، أو على الظالم الذي كان قويا . غير انه لاتزال امام هذه المنظمات مراحل كثيرة عليها ان تذلل وعوراتها لتقضي على غرائب من التخلف لاتخطر للسيدات المشرفات على تنظيم اجتماعات التوعية وتعليم الاميات وتوزيع الهدايا على المتفوقات في شؤون ادارة المنزل ببال . الى هاتيك السيدات اسوق هذه الحكاية التي مرت بي في عيادتي منذ ثلاثة اعوام او اربعة :

جاءني بدوي مرافقا لزوجته المريضة الى العيادة . فحصت المرأة في غرفة المعاينة وعدت الى مكتبي لاحرر الوصفة . قلت للرجل الذى كان واقفا امامي : ما اسم زوجتك ؟ فتطلع الي قليلا ولم يجب ، وتركني للحظة الى حيث كانت امرأته ، ثم عاد وقال : اسمها هدبا ... قلت وانا ابتسم : اراك ذهبت اليها وعدت ، كأنك كنت تسألها ... الاتعرف اسم زوجتك؟ قال بكل بساطة: لا بالله. صحت مستنكرا: كيف.... زوجتك ، الا تعرف اسمها ؟ فقال الرجل بهدوء ، كأنه يسوق الي اكثر الحجج منطقية واكثر الاعذار اقناعا : انها جديدة عندي ، مالنا اكثر من عشرة ايام منذ تزوجنا !

* * *

العنيّـــة والمنيّـــة

العنيّة هي ما يسمى باللبخة ، أو هي الكمادة الحارة المطعمة بألوان من الحشائش والتي يضعها الريفيون على الجرح الملتهب أو على بؤرة الكسر المتقيحة او على ما شابههما من آثار الرضوض والطعنات بغية شفائها . والمنيّة هي ، كما هو معروف ، الموت . ويجمع الناس في ريف وادي الفرات بين هاتين الكلمتين في تعبير لهم مشهور ، يصفون فيه حال امرىء اصيب بجرح أو رض واستمرت معالجته بدون جدوى الى ان مات ... ذلك التعبير هو قولهم : ظلّت العنية على العنية ، حتى دنت المنية ...

وكثيرا ما يدعى الطبيب في ريفنا ليحكم بأن منطوق هذا التعبير هو ايجابي بالنسبة لميت كان قد تعرض لاصابة قديمة من يد معتدٍ معروف . اعني ان يحكم بأن الاصابة القديمة هي التي سببت ، رغم استمرار المعالجة ، الموت . فاذا حكم الطبيب بخبرته بهذا ، وقع دم الميت في عنق ذلك المعتدي ، مهما كان مرور الزمن بين الاعتداء ووفاة المعتدَى عليه ، وتبع ذلـــك تركز حقوق شريعة البادية على المعتدي واهله في نفقات المعالجة وفي الدية والثأر وما يتبعهما . وأنا ، لكثرة ما رأيت من تجنّي المدعين من اهل المتوفين على المدّعى عليهم، اصبحت

سيء الظن بدعاوى العنية والمنية هذه ، احاول دوما الابتعاد عن الاشتراك في خبرتها . ولكن بعض الحالات التي اشتركت فيها حملت الي مفاجئات لم اكن اتوقعها ، وذكرتني بدروس عن قضايا الجسد الانساني في صحته ومرضه كان علي ان لا انساها .

في ذات مرة جاءني رجل مسن ، يحمل تزكية من والدي تشهد بأنه رجل صدق لم يجرب عليه الكذب . كان الرجل يشكو من دوخة وانحطاط في قواه يزداد يوما بعد يوم ، وهو يقول بأن هذه الامور لم تصبه الا منذ يوم حضر فيه شجارا واصابته ضربة عصا من جرائه ، وذلك منذ بضعة اسابيع . وكان ابناء الرجل يرافقونه ، وقد بينوا لي انهم يريدون مني شهادة بأن سبب الاعراض التي يشكو منها ابوهم هو تلك الضربة ، ليستندوا اليها عند مقاضاة الطرف الثاني في الشجار .

لم يكن لضربة العصا أثر باق في رأس الرجل عندما فحصته . كما ان الرجل نفسه اعترف لي بأن تلك الضربة لم تحدث فيه جرحا أو خدشا ، وبأن الطبيب الشرعي الذي فحصه يوم الشجار لم يجد من اثرها ما يلفت النظر فاعطاه حينذاك تقريرا بالشفاء لمدة يومين دون تعطيل عن العمل . اخبرت ابناء الرجل اني لم اجد في فحصي لابيهم ما يسمح لي بأن اعزو شكواه الى تلك الضربة المتهمة ، وان كل ما فيه هو اعراض يشكو منها المسنون من امثاله حين يتقدم بهم العمر وتتصلب منهم الشرايين . بل اني كنت متأكدا من فحصي السريري بحيث لم أر من حاجة الى ان اجري لجمجمة الرجل تصويرا شعاعيا ، اذ وجدت ان لا طائل من هذا التصوير الذي الح علي الابناء في ان اجريه لابيهم .

ومضت اسابيع ، ثم عاد الرجل اليّ وقد بدت عليه اعراض فالج شقّي ، اعني شللا اصاب احد جانبي الجسم • في هذه الاسابيع كان الرجل قد راجع اطباء كثيرين، في اكثر من بلد، واجرى فحوصا متعددة وصورا شعاعية ، فجاءت آراء الاختصاصيين فيها متفقة على فقدان الدليل على تسبب رض على الجمجمة فيما حدث له ، وفي ترجيح عزوه الى الشيخوخة وعوارضها وآفاتها • غير ان ابناء الرجل كانوا مصرّين على عزو ما نزل بأبيهم الى ضربة تلك العصا ، وقد جاؤوا اليّ في هذه المرة يريدون مني ان اقبل الاشتراك في لجنة طبية طلبوا عقدها ، في شكوى قدموها الى القضاء ، لفحص حال والدهم • افهمتهم ان رأيي لم يتغير عما قلته لهم فيما مضى ، وان ذلك سيكون رأي كل من يفحص اباهم ويرى نتيجة ما أجري له من فحوص ، ونصحتهم ان يتركوا هذا التعنت في الادعاء الذي لن يعود عليهم بغير ضياع الجهد والخسارة المادية •

وحقا كان الامر كذلك في الدعاوى المتلاحقة التي اقامها الابناء ، الى ان نزل الموت بأبيهم بعد اشهر قليلة • في هذه المرة تقدم الابناء بشكوى جديدة ، ومستعجلة ، طالبوا فيها بتشريح جثة ابيهم للتثبت من سبب العاهة العصبية التي اصابت اباهم وانتهت به الى وفاته • ومرة اخرى الحّ عليّ هؤلاء الابناء في ان اقبل الاشتراك في اللجنة التي تتولى فحص الجثة • قالوا لي انهم يظلون واثقين بي على الرغم من رأيي في أمر ابيهم في حال حياته ، فاذا اخبرتهم بأن التشريح لم يغير من ذلك الرأي شيئا فانهم سيتقبلون ذلك مستريحي البال مطمئنين الى

اني نقلت اليهم الحقيقة المجردة • ولم اجد مفرا من القبول • فقد كان هذا الاصرار من جانب الابناء مثيرا لي ، وكنت اريد ان اسير معهم الى نهاية الشوط لاثبت لهم خطأ توهمهم في ما اتفق الاطباء على انه لايقوم عليه دليل •

وفي مقبرة البلدة قمنا ، ونحن لجنة مؤلفة من ثلاثة اطباء ، بتشريح الجثة بعد اخراجها من مدفنها • اول ما كان علينا فعله هو ان نفتح الجمجمة ونفحص الدماغ ، لعلمنا انّ الى اصابته يرجع الفالج الشقي الذي كان مقدمة للوفاة • سلخنا جلد الرأس فوجدنا عظام الجمجمة سليمة سلامة تامة ، لا اثر لكسر او لتشقق فيها • ونشرنا بعد هذا تلك العظام لنتأمل في كتلة الدماغ تحتها • وهنا فوجئنا نحن الاطباء ، وفوجئت انا اكثر من غيري ، بوجود كتلة متورمة في الجانب الايسر من سطح الدماغ ، قريبا من الناحية القفوية ، عند مكان الرض الذي كان المرحوم اشار اليه في حياته • تلك الكتلة كانت جيبا دمويا متجمعا تحت الغشاء الظاهري للدماغ ، وهو الغشاء الذي ندعوه الام الجافية، نجم دون شك عن نزيف في هذه الناحية حدث اثناء الحياة • بدا لنا سبب الفالج ، ثم الوفاة ، حينذاك واضحا : في هذا المكان حدث في يوم ما نزيف خفيف ، وتراكم النزيف مع الزمن وكوّن كتلة لم تستطع البروز من عظام الجمجمة فاتجهت الى الضغط على الانسجة اللينة دونها ، اعني على الدماغ • لابد ان النزيف كان في البدء ضئيلا ، فلم يحدث عرضا صارخا • ولكنه كان متواصلا ، سبب الانحطاط ، والدوار ، ثم الشلل ، ثم تفاقم فضغط على المراكز الحيوية في الدماغ

وانتهى بالموت • لم تفلح كل المعالجات في ايقاف هذا النزيف ، كما لم تفلح كل المعاينات والفحوص لاكتشافه •

حقا اذن ظلت ، في حالة هذا الشيخ ، العنيّة على العنيّة حتى دنت المنية ! صحيح ان ضربة تلك العصا لم تجرح الرأس ولم تكسر عظما في الجمجمة ، الا انها احدثت تمزقا ضئيلا في احد الاوعية الدقيقة في سطح الدماغ••• ربما كان سبب هذا التمزق لرض خفيف غير ذي خطر ان الرجل كان طاعنا في السن ذا شرايين متصلبة ، وربما كان هذا تفسير عدم شفاء ذلك التمزق الضئيل شفاء عفويا او بالمعالجة ، الا ان ذلك لا يمنع من القول بأني وكل زملائي الذين فحصوا الرجل وعالجوه في مختلف البلاد والاوقات ، قد جانبنا الصواب في التشخيص وفي المعالجة ، وفي الحكم الطبي الشرعي • كانت هذه حقيقة لابد من الاعتراف بها ، كما كانت ، كما اسلفت في البدء ، درسا جديدا او تذكيرا بدروس سابقة لنا جميعا في ان لا تكون ثقتنا بفحوصنا السريرية مهما كان وراءها من علم وتجربة ، وبفحوصنا المخبرية مهما كانت ادواتها دقيقة وعصرية ، ان لاتكون ثقتنا بكل هذه الفحوص وتلك ثقة مطلقة • فالجسم الانساني يظل دوما قادرا على ان يخبىء لنا من المفاجئات ما يقف امامه علمنا حائرا وتقف خبرتنا وتجهيزاتنا عاجزة •

* * *

الخبرة ، والمعرفة ، والجرأة

الخبرة تزيد في المعرفة ، ولكنها تنقص من الجرأة . هذا ما اتحقق منه يوميا حين اقف في عيادتي الريفية امـام حالة خطيرة سبق لي ان وقفت امام ما يماثلها منذ اعوام ، في اول ممارستي للطب . انا اليوم ، بعد خبرة مكتسبة من الممارسة الطويلة والاطلاع المستمر ، اكثر مـن الحسابات واتهيب واحيـل الحالات الخطيرة الى غيري مـن الزملاء الاختصاصيين ، متعللا بعدم الاستعداد او قلة التأهيل للتدخـل في حالات كنت في ايام ممارستي الاولى اتداخل فيها بكل جرأة ، غـير حاسب ، في تلك الايام ، حسابا للعواقب فيما اجدني مقتنعا بوجوب القيام به لمريض جاءني مستشفيا ، مهما كانت حاله من العسر وكانت حالي من قلة التأهب وفقر الوسائل .

اضرب على ما اقوله مثالا حالة احمد الموسى التي يرجع تاريخها الى اثنين وعشرين عاما على التقريب ...

فمنذ ما يقارب اثنتين وعشرين سنة جاءني احمد الموسى هـذا مريضا ، محمولا على ايدي جماعة من اقاربه . كان شابا جلدا ، ولكن جسده الفتي والقوي كان مصابا بفالج شقي ، اعني بشلل متناول يده ورجله اليمنى والجانب الايسر من وجهه . وكانت به حبسة ، أي انه كان معقول اللسان لا يقدر على النطق بكلمة . كان يسمع ويفهم ولكن

التلفظ بالجواب كان مستحيلا عليه • سبب هذه الاصابة التي حلت بأحمد الموسى ضربة فأس نزلت على الجانب الايسر من رأسه ، فكسرت عظام الجمجمة في المنطقة التي تختص بتحريك الجانب الايمن من الجسم والتي تتركز فيها وظيفة النطق ايضا • ماذا كان في مكنتي ان افعله لهذا الشاب غير ان ابلغ اهله بتشخيصي البدئي لاصابته ؟ كان كسر الجمجمة واضحا : ادخلت المسبار في الجرح الواسع فسمعت قعقعة العظم تحته ، وتبينت ان الكسر غائر ضاغط على كتلة الدماغ • واضح ان هذا ما سبب الفالج والحبسة • اخبرت اهل احمد الموسى ان معالجة مريضهم ليست من اختصاصي وان عليهم ان يتوجهوا به الى حلب ، حيث يعرضونه على جراح يقوم بما يلزم من فحوص مختلفة تمهيدا لعملية جراحية لابد منها •

ما فعلته هو التصرف الطبيعي لطبيب داخلي مثلي ، امام حالة مثل حالة احمد الموسى ، اذا عرضت عليه في أيّ مكان ••• الا في الريف الذي كنت اعمل فيه • حلب ، التي اوصيت اهل احمد الموسى بأن ينقلوه الى احد مستشفياتها ، تبعد عنا مائتي كيلو متر • والشتاء اقصى شتاء مرّ على المنطقة منذ عشرات السنين • واهل المصاب يكادون لا يملكون اجرة طريق العودة الى قريتهم التي ما بلغوا اليّ منها الا في عناء ومشقة • تباحث مرافقو الجريح المشلول فيما بينهم وقالوا : اذن نعيده الى اهله ! قلت مستنكرا : كيف تعيدونه ؟ ان ذلك يعني موته ، او على الاقل يعني بقاءه نفاية بشرية ، اخرس مشلول اليد والرجل ••• لابد من نقله الى حلب ! وكان احمد الموسى ، كما اسلفت يسمع الكلام ويفهم معانيه ، فاشار اليّ بتقليب عينيه في وقبيهما

وبحركات يده السليمة اشارات تعني بأنه لن يتعالج عند احد سواي . افهمته بأن معالجته ليست من اختصاصي ، وليست في مكنتي . فأدار عينيه مرات اخرى بشكل يعني الاصرار وبذل جهدا كبيرا ليسمعني غمغمة في حشرجة فهمت منها انه يقول انه هنا ، في هـذه العيادة ، يموت او يحيا ...

كان موقفا حرجا بالنسبة لي . كنت اعرف اني اذا نفضت يدي من مساعدة هذا الفتى فان مصيره سيكون المصير الذي تنبأت لاهله به ، اذ انهم سيعيدونه الى قريته في حالته البائسة هذه . افلا استطيع حقا ان اصنع له شيئا يفيده ؟ الفالج ناجم عن انضغاط الدماغ بالعظم الغائر من ضربة الفأس ، فاذا تدخلت وازلت الضغط بتوسيع الكسر ونزع الشظايا الغائرة فان هناك املا في انيستعيد هذا الشاب حركة يـده ورجله وفي ان يعود اليه النطق . هناك أمل حقا ، ولكن هناك خطر ايضا . هناك خطر ، وخطر كبير ، اذا كانت العظام المكسورة قد جرحت اغشية السحايا ونبتت في الدماغ ، او اذا كانت بلغت وعاء دمويا كبيرا فجرحته . اذا كان هذا حاصلا ، فان الذي سيحدث حين ارفع القطع العظمية الغائرة ان ينبثق الدم بصورة فجائية وغزيرة ، وسأعجز عـن ايقاف النزف بوسائلي القاصرة في عيادتي الريفية ، وسيموت هـذا الرجل بين يديّ ...

انها مغامرة ، فهل اقدم عليها ؟ بكل الجرأة التي كنت احملها في تلك الايام ، قررت ان افعل . افهمت رفاق احمد الموسى ، وهو نفسه يسمع ، بخطر الحالة . اشار هو اليّ بعينيه انه يفهم وانه موافق . قلت له : ستتألم ، فلن ابنّجك ، فهل ستتحمل ؟ اشار اليّ ان نعم .

قلت : اذن فلنتوكل على الله ! واخذت باعداد آلاتي البسيطة : مشرط ومقص ، ومقراض للعظم ، وازميل ومطرقة وبعض الابر ، عقمتها كلها بتلهيبها بنار الكحول ، ثم خيوط قمت بتعقيمها بابسط طريقة ، اعني بغليها مطولا في الماء .

في الواقع ان العملية التي باشرتها لم تكن تحتاج الى معرفة زائدة مثل احتياجها الى الشجاعة في الاقدام عليها . وسعت شق الجرح في الجلد المشعر ، وسلخت الجلد عن العظم ، وبالازميل والمطرقة احدثت ثغرة حول العظم الغائر مكنتني من ان اتناول بالمقراض شظاياه كسرة وراء كسرة . لم يكن عندي مساعدون متمرسون . وقد وقع ارضا رجل كان يتطلع من نافذة الغرفة الى ما كنت اصنعه برأس احمد الموسى ، كما ان مساعدي الصبي شحب وجهه ولم يعد يتماسك في وقفته لسماعه وقع المطرقة على الازميل على الرأس الحي امامه . صرفت الصبي عني وبقيت وحدي اعالج عظام الجمجمة بما بين يدي من آلات ، ورفعت الشظايا المفتتة فتكشفت لي تحتها الأم الجافية من السحايا ، وهي الطبقة الخارجية من اغلفة الدماغ البشري .

تلك اللحظة كانت احرج لحظات الموقف الذي كنت فيه . بعد ان زال ضغط العظام الغائرة في مكان الكسر كان يمكن ان تبدو لي الأم الجافية ، والانسجة السحائية تحتها ، ممزقة فينبثق الدم من العروق النازفة بشكل لا استطيع ايقافه وفي ذلك الموت الصاعق . وكان يمكن كذلك ان تظل الأم الجافية ، وهي كما قلت الغشاء الخارجي للدماغ ، شاحبة وجامدة لا تتحرك ، وهذا يدل على حدوث نزف ضاغط في داخل الدماغ مما يضطرني الى البحث عن هذا النزف بابرة او محاولة

افراغه بمشرط ، وكلا الامرين خطر خطر . الا ان هذا ، لحسن الحظ، لم يحدث ولا ذاك . فقد تراءت لي الأم الجافية شاحبة في البدء ، ثم لم تلبث حتى تلونت بلون مورد واخذت تنبض امام بصري مرتفعة ومنبسطة بحركات متساوقة ، هي حركات النبض الشرياني واندفاع الدم من القلب في العروق . اذن فان كل ما فعلته تلك الفأس المجرمة هي ان كسرت عظام الجمجمة وجعلتها تضغط على انسجة المخ التي ظلت سليمة تحتها . وحمدت الله على هذا ، فقد نجحت هذه الجراحة التي اقدمت عليها .

نجحت العملية حقا : في المساء حرك احمد الموسى رجله وتحركت ، في اليوم التالي يده . ولم تمض ثلاثة ايام حتى ظهر التحسن في نطقه وانطلق لسانه بعد طول احتباس . اما مكان الكسر في رأسه فقد ظل فارغا مـن العظم بعرض اصبعين . خطت الجلد فوق منطقة العظم المفقود ، فملأت الفراغ في الاسابيع التالية انسجة رخوة تكسو الدماغ ولكنها لا تستطيع ، بلا شك ، حمايته من ضربة فأس اخرى . لهذا كانت وصيتي لاحمد الموسى بعد ان عاد رجلا سويا وقويا ، ومتكلما ، ان يلبس على رأسه طاقية من اللباد تحت كوفيته ، وان لا يخوض بعد الآن معارك اسلحتها الهراوات او الدبابيس او الفؤوس ...

تلك حالة دقيقة قد اكون وقفت امام مثيلات لها مرات عديدة في تلك الايام البعيدة ، وتصرفت فيها تصرفا مثل تصرفي الذي وصفته ، بنجاح مماثل لنجاحي فيه او قريب منه . الا اني حين استعيد اليوم ذكرياتي عن تلك الحالات اكاد احس بالرعدة تنتابني لجرأتي في الاقدام على ما كنت اقدم عليه . حين تأتيني اليوم حالة مثل حالة احمد الموسى،

وما هو اقل خطرا منها ، لا امد اليها اصبعا • احيلها الى الجراحين ، والى الاختصاصيين الكثر ، كل فيما هو مؤهل له • اعرف ان هذا يكلف المريض مالا ويكبده عناء ، ولكني اقنع نفسي بالقول اني لست مسؤولا عن وضع الناس الاقتصادي ولا مكلفا بالتفتيش عن راحتهم • ترى هل خفّ شعوري بالمسؤولية او ضعف حسي الانساني بعد ربع قرن من الممارسة الطبية حتى اصبحت اصم اذني عن نداءات كنت اهرع الى الاستجابة اليها اول ايامي في ممارسة مهنتي ؟ ليس هذا هو السبب بلا شك • ثمّة عوامل اخرى لطريقتي في التصرف اليوم ، من اهمها اني في هذه الاعوام المتتالية ، التي مرت منذ اقدمت على فتح رأس احمد الموسى ، قد اكتسبت خبرة كبيرة زادت حقا في معرفتي ولكنها ، كذلك ، انقصت حقا من جرأتي ومن شجاعتي •



آخــر الدواء وأولــه

في الامثال العربية القديمة أن آخر الدواء الكيّ .

وهذا المثل حكمة طبية كثيرا ما تتفق مع الحقائق العلمية ، او انها لا تتعارض مع تلك الحقائق . فحين كانت المعالجات الطبية المعروفة تفشل في ان تشفي المرض او في ان تقضي على الالم ، كـان الطبيب القديم يلجأ الى الكي بالنار كآخر وسيلة في يده ، موطنا النفس على تحمل مسؤولية ما تسببه من ألم مبرح ولكنه وقتي ، ومن تشويه دائم، لمريضه ، في سبيل ما يمكن ان تعود به على هذا المريض من شفاء . وهــذا اللجوء لا يكون الا في نهاية المطاف وبعد اليأس مــن فائدة المعالجات الاخرى ، لذلك قالوا ان آخر الدواء الكي .

ذلك كان الطب القديم ، في ازمان كانت اساليب العلاج الاخرى فيها بدائية ومحددة . ولكن العجيب ان الريفيين في ايامنا هذه التي تعددت فيها طرق الشفاء وتكاثرت فيهــا العقاقير الفعالة ، لا يزالون يلجأون الى الكي بالنار بصورة مستمرة . واعجب منــه انهم قلبوا منطوق تلك الحكمة القديمة التي كانت لها تبريراتها وكانت لها فعاليتها، فجعلوا الكي لا آخر الدواء بل أوله : يطبقونه على مرضاهم قبل اية معالجة طبية فاذا اخفق في شفاء الداء ، وغالبا ما يخفق ، جاؤوا الى الاطباء يبحثون عن النفع في علمهم وتجربتهم .

والريفيون في وادي الفرات وباديته يستخدمون الكيّ اليوم في

كـل الامراض . في ابسطها واسلمها مثله في اكثرهـا استعصاء على الشفاء • ويكوى عندهم المرضى من كل الاعمار : الوليد ابن اسبوع، والفتـاة العذراء . والشيخ المسن • وهـم يطبّقون الكيّ بصورة مختلفة : بالتلكيع وهـو اللذع بطرف السيكارة المشتعلة او بجمرة متقدة لذعـا سريعا ومتعددا يترك اثره في بشرة الجلد حرقـا أسود لا يتجاوزها الى الادمة . وبالتشطيب وهو ان تحمى مسلة غليظة او سيخ حديد في النار الى ان يحمرّ ثـم يشطب الجلد بأحدهما حتى يحترق بكل طبقاته ويصل الى الشحم والعضل تحته . ثم بالعطبة وهي لفافة اسطوانية بغلظ الخنصر تصنع من قماش ازرق ثخين يحرق طرفها ويطبق هذا الطرف المحروق على جلد البطن او الظهر او على احـد الاطراف فتشتعل النار في لفافة القماش وفي الجلد في آن واحد . وتظل على اشتعالها دقائق طويلة الى ان يرى من يقوم بالعملية ان ما احترق من جلد المريض فيه الكفاية . فيرفعها عندئذ في انتظار ان يقتلع النسيج المحترق وتظهر النسج الحية دونه حمراء ملتهبة •••

وعلى الرغم من ان بصري قد تعود رؤية آثار الكي.قديمه وحديثه. على اجساد مرضاي فاني لأزال اصدم بهذه الرؤية ، متعجبا حينا متقززا حينا وثائرا احيانا اخرى • اتعجب من صبر هؤلاء المرضى على نار تحرق جلودهم وتنفذ الى ما تحتها من لحومهم طلبا لشفاء كان يمكن ان يحصلوا عليه بمعالجات بسيطة لا تؤلمهم ولا تشوههم • واتقزز من منظر الجلد المحترق . او المسلوخ على اثر الكي . ينز صديدا ويأكل في النسج الرخوة حافرا فيها ومشوها لها ابشع تشويه • وأثور بصورة خاصة حينما يحمل اليّ طفل رضيع قد حفر الكي بالحديد المحمى خطوطا متقاطعة . او مربعات ودوائر . على جلده الغض في البطن او

الظهر ، او في قمة الرأس او نقرة العنق . اثر الكيّ في مثل هذا الطفل لا يقتصر على الجرح المتهتك ، الغائر او المتبرعم ازرارا حمراء ملتهبة في نسجه الطرية ، بل اراه في عينيه فزعا وهلعا مقترنين بصراخه الحاد من كل يد غريبة تمتد اليه بعد ان سارت على جسده اللدن يد الكاوي الجانية بالنار المحرقة .

نعم ، لكم صدمت برؤية آثار الكي المؤلمة والبشعة على اجساد مرضاي . ولكم تذكرت وانا أرى هذه الآثار ، ولا سيما وانا اراها على اجساد الفتيات والنساء الشابات ، مـا سمعته مرة من الدكتور ناردي ، مساعد البروفيسور باتل في مستشفى تينون في باريس ، حين كنت اتردد على شعبة الجراحة في ذلك المستشفى . كـان الدكتور ناردي يجري عملية استئصال الزائدة الدودية لاحدى الفتيات . شق جلد المريضة الصبية شقا بطول سنتمتر واحد ، وشق النسيج تحت الجلد بهذا القدر ، ومن خلال هذا الجرح الصغير مدّ ملقطه فالتقط به الزائدة واخرجها واستأصلها . وبعد ان خاط الجلد قال لنا نحن الذين كنا حوله : في مثل حالة هذه الصبية احرصوا على ان لا تجروا شقا طويلا،لئلا تتركوا على الجلد ندبة ظاهرة ، مشوهة ... ولاتنسوا ان الفتاة ستسبح وستلبس مايوه بيكيني ينكشف فيه بطنها ، فاذا اطلتم الجرح الجلدي عن هذا القدر تسببتم في تشويه هذا الجسد الفتي ، وربما عرضتم نفسكم للمقاضاة بجرم ذلك التشويه ...

ترى ما الذي كنت تقوله يا دكتور ناردي لو رأيت من آثار التلكيع والتشطيب والتعطيب في بطون النساء وظهورهن ما رأيته ، ولو علمت ان الكي الذي أحدث تلك الآثار قد طبق عبثا ، لم تجن منه حاملاته أية فائدة او شفاء ، ولم يعد عليهن بغير الالم المبرح والتشويه والتعطيل ؟!

* * *

كل شيخ وله طريقة

استاذ لنا في كلية الطب قال لنا ، نحن تلاميذه ، ذات مرة ما يلي : نصيحة اقدمها اليكم يا أبنائي ... ستتخرجون في يوم مقبل من هذه الجامعة اطباء ، وسيحتاج الناس الى خدماتكم بصورة مستمرة ، فاياكم اياكم ان تتهاونوا في تقدير قيمة هـذه الخدمات . لا تجيبوا سائلا يسألكم على قارعة الطريق وصفة لمرضه ، ولا تقدموا استشارة طبية دون ان تقبضوا ثمنها ، لا تنسوا انكم تحملتم في سبيل ما حصلتم عليه من علم سهر الليالي وانفقتم فيه عمركم ومالكم ، فعوّدوا الناس ان يحترموا ما تعطونهم اياه وان يدفعوا ثمنه ...

واحسب ان بعضنا من تلاميذ ذاك الاستاذ ، ولا سيما اطباء المدن . والاختصاصيون منهم قبل غيرهم،قد وعوا النصيحة واحسنوا تطبيقها . اما نحن اطباء الريف فأبعد ما نكون عن العمل بتلك النصيحة الذهبية . باعد بيننا وبين تطبيقها استعداد بعضنا النفسي ، كما باعدتنا عنه ظروف البيئة التي نعيش فيها . وفي هذا المجال اذكر حديثا جرى لي مع زميل لي في حلب متقدم في السن ، وقد توفاه الله الآن ، كان مشهورا بغرابة اطواره وحدة طبعه مثل شهرته بحذقه في اختصاصه .

كنت في زيارة ذلك الزميل صباح احد الايام ، في عيادته ، حين دخلت عليه امرأتان ، عجوز وابنتها ، تحملان طفـلا مصابا باندفاع جلدي . تناول زميلي ، كعادته ، اجرة الكشف من العجوز مقدما ،

وفحص الطفل كما ينبغي ، ثم كتب وصفة بالدواء وافهم الام وابنتها كيفية تطبيقه على الطفل المريض . وهنا قالت لـه العجوز : اخبرني يا دكتور ، هل يحدث هذا الاندفاع من بعض المآكل ؟ من البرغل مثلا؟ فأجابها بجفاء : هذا دواء المريض ، ولا محل لسؤالك من الاعراب . قالت العجوز في تأدب : ولكـن جارتنا تقول ... فقاطعها الطبيب منتهرا : وماذا يهمني ما قالته جارتك او قاله جارك ؟.. هذا دواء ابن بنتك وكفى ! فحاولت العجوز المسكينة ان تعيد سؤالها بصيغة اخرى ، الا ان زميلي صرخ في وجهها بحدة قائـلا : انت عجوز ثرثارة ... لا تضيعي وقتي بما لا يفيد ، خذي وصفتك وانصرفي عني ...

وانصرفت المسكينة . وكما قلت ، كان زميلي هذا مشهورا بحدة طبعه ، ولكني لم اتمالك نفسي عـن ان اسوق اليه اللوم على هـذه الخشونة التي لا مبرر لها . قال : انت لا تعرف هؤلاء الناس ، اذا فتحت لهم باب الكلام الفارغ فانهم لن يسكتوا طول النهار ... يجب ان تعاملهم بهذه الطريقة لتوفر وقتك وتريح اعصابك ، وهذه نصيحة من هو اكبر منك سنا واكثر تجربة . ضحكت عندئذ وقلت له : تمنيت لو استطعت اتباع نصيحتك هذه ، ولكني عاجز عن ذلك ، فكل شيخ وله طريقة كما يقولون ، ولا ادري ماذا كنت تفعل لو مر بك مامر بي قبل دقائق وانا في طريقي الى عيادتك ...

قال زميلي مستفهما : وماذا مر بك ؟

قلت : كنت قادما اليك ، وبينما أنا في سيري في الشارع الذي تراه من هذه النافذة احسست بيد تقبض على كتفي بشدة وسمعت رجـلا يقول من ورائي : هذا هو يامرأة ! فوقفت والتفت الى الوراء فـاذا

بالقابض على كتفي رجل لا اعرفه ومعه امرأة تلف رأسها وجسدها بملاءة سوداء وتحمل طفلها بين ذراعيها . قلت للرجل : من انت ؟ قال: ولو ... الم تعرفني يادكتور ؟ انا مصطفى ! اثبت نظري فيه فتذكرت رجلا كان يحرس عمارة كنت اقيم فيها منذ عشر سنوات . قلت له : اهلا يامصطفى ، ماذا تريد مني ؟ قال : يادكتور ... ابننا مريض . ونحن نحمله لنعرضه على طبيب ، وكنت اقول لزوجتي في طريقنا انك لو كنت في حلب لحملناه اليك واقتصدنا اجرة المعاينة . واذا بك امامنا في هذا الشارع . فهل لك ، اطال الله عمرك ، ان تفحصه لنا ؟

كنت اقص في الواقع على زميلي المسن ، الحاد الطباع ، رحمه الله ، حكاية جرت لي حقا قبل دخولي عيادته بدقائق . وحين طلب مني مصطفى طلبه ذاك لم املك نفسي عن الابتسام . كان لايزال ممسكا بكتفي على رصيف الشارع ، وامرأته تقف الى جانبه حاملة طفلها . والجو غائم والسماء تمطر رذاذا . تلفت حولي أبحث عن مكان الجأ اليه من المطر الذي اخذت تشتد حدته، فاكتشفت اننا نقف على الرصيف امام خمارة مفتوحة لها مدخل هو ممر طويل وضيق ، فجررت مصطفى تتبعه زوجته الى المدخل وقلت للمرأة : ماذا يشتكي ابنك ؟ اريني وجهه ! فكشفت لي وجه الطفل ، فاذا به احمر محتقنا ، عيناه دامعتان وانفه سائل ونفسه ضيق . وفي وجهه وعنقه المكشوف بقع نمشية لا يخفى امرها على طبيب . قلت للرجل : ابنك يامصطفى مصاب بحصبة، ولاشك في انه مصاب معها بذات القصبات والرئة ... خذ هذه الوصفة واشتر له دواءها ، والشفاء على الله . واخرجت من جيبي ورقة كتبت له فيها الدواء المطلوب ، ثم خرجت من مدخل الخمارة الضيق الى الشارع الواسع ، مسرعا تحت المطر الى عيادة زميلي القريبة .

اتممت رواية هذه الحكاية على زميلي وقلت له : ماذا تفعل لو مرت بك هذه الواقعة ، ولو كنت تتلقى اسئلة الناس ، كما اتلقاها ، في الطريق والمقهى ، وفي الجامع وفي الملهى ، وفي السفر والحضر ، وكنت مضطرا في كل لحظة الى ان تخرج قلمك فتكتب به وصفة على مظروف رسالة، او جلد كتاب ، او هامش جريدة ؟ فعبس زميلي لسؤالي وافتراضاتي وقال : لا .. لا ... هذا تهاون بحق الطب وتفريط بحق نفسك لاارضاهما لك ولامنك . لو امسك صاحبك هذا بكتفي كما امسك بكتفك لنزعت كفه عني بعنف وقلت له : لي عيادة ، ولي وقت دوام ، والشارع ليس مستشفى ولا مستوصفا ، فابعد عني !

ضحكت عند هذا مرة اخرى وقلت لزميلي العابس والمتوتر الاعصاب : اقول لك الصحيح ؟ هناك احيان كثيرة اتمنى فيها أن اقول هذا وافعله ، اعني ان اتصرف على طريقتك ، ولكني حتى لو اردت هذا ما استطعته . فان الامر لا يعدو ان يكون كما قال الاولون : كل شيخ وله طريقة !

* * *

والدجالـون درجـات ...

الطفل لم يكمل العام الاول مـن عمره ، شاحب الوجه مشدود الاطراف قليل البكاء ، تثيره كل حركة ولكنه لا يستطيع التعبير عن ألمه بغير تغضين جبينه وتجعيد ملتقى شفتيه واجفانه . وهو فوق ذلك متصلب النقرة ، رأسه ملقى الى الوراء ، لا يطاوع اليد التي تريد ان تثني الرأس لتلامس ذقن الطفل صدره . واضح ان هذا الطفل مصاب بالتهاب السحايا الدماغية الشوكية ، أي بما يسمونه الحمى الدماغية، وانه في طور متقدم وخطير من هذا المرض ...

ولم يكن غريبا علي ، ولا نادرا ، ان يأتيني طفل كهذا مصاب بالتهاب السحايا في طوره المتقدم . ففي الريف الذي اعيش فيه عوامل كثيرة تجعل المرضى ، بكل انواع المرض ، يتأخرون في استشارة الطبيب او لا يستشيرونه ابدا ، كما تجعل من فضول الكلام ان يلام مريض على عدم مبادرته العلاج منذ بدء اصابته بدائه . ومع ذلك لم املك نفسي عن ان اقول لوالدي الطفل الذي كان بين يدي ، وبلهجة المؤنب، انهما أخطآ خطأ كبيرا باهمالهما ابنهما حتى بلغ به المرض هذه الدرجة. قالت الام : ولكننا لم نهمله ... منذ ثلاثة ايام ونحن نعالجه . سألتها: عند من ؟ فتطلعت الامرأة الى زوجها كالمترددة في الاجابة على سؤالي ، في حين قال الزوج ببراءة : عند علي الشوّاخ ... حملناه اليه منـذ ثلاثة ايام ، فدلجه وكواه ، وقال لنا اياكم ان تعرضوه على طبيب ، لانه

سيموت عند اول ابرة يحقن بها !... غير اننا لم نجده في تحسن ، فلم نصبر وأتينا به اليك ...

كان مؤلما ان لم يؤت بهذا الطفل اليّ ، او الى أي طبيب آخر ، الا بعد ان احتجزه علي الشواخ اياما ثلاثة استفحل خلالها الداء في الجسد الصغير الغض ، وحوّلت فيها جراثيم المكورات السحائية سائله الدماغي الشوكي الى مادة قيحية . وعلي الشواخ هذا اعرفه ، او انني في الواقع اعرف اسمه دون ان اتعرّف على شخصه ، واحدا من الدجالين الكثيرين في بلدي كثرتهم في البلدان الاخرى ، وان كان اثرهم في بلد يسيطر فيه الجهل على العقليات والتصرفات اخطر منه في بلد اهله على شيء من المعرفة وحسن التصرف . انه ينتمي الى الفئة الخطيرة من المتطببين المشعوذين ، تلك التي لا تقنع بكسب يأتيها من ممارسة لا شرعية لفن لا معرفة لها به ، بل تقرن لا شرعية كسبها او تغطي عليها بتصرفات لا انسانية ومجرمة .

ذلك ان الدجالين فئات متمايزة ، يمكن تصنيفهم بحسب درجتهم في المعرفة ، او لنقل درجتهم في الجهل ، أو حسب شهرتهم وتهافت طالبي الشفاء عندهم ، او حسب مدى الضرر الذي يلحقونه ببسطاء الناس الذين يقصدونهم مفتشين عندهم دواء لعللهم اليسيرة او المستعصية . واذا أخذنا المفهوم الاخير مقياسا لتصنيفهم وجدنا انفسنا مضطرين الى الاعتراف بأن بعض هؤلاء الدجالين اقرب الى الانسانية من بعض آخر ، لمجرد انهم اقل اضرارا بعامة قاصديهم واهون شرا .

لنأخذ مثالا على ذلك السيد حسين . انه متطبب ذو شهرة واسعة ، ادركته في اول ممارستي للطب والناس يقصدونه في ناحية السبخة ،

القريبة من بلدتي الرقة ، من كـــل ارجاء بادية الفرات ومن البوادي البعيدة ، يحمل كل واحد منهم في طرف كوفيته ليرة عثمانية ذهبية ، لابد ان تكون رشادية ، ثمن ابرة يزرقهم بها السيد حسين ليشفوا بها من داء البجل الكثير الانتشار في تلك البوادي . السيد حسين هذا كان ممرضا اقتبس مـــن الطبيب العسكري الذي لازمه في الحرب العالمية الاولى معالجة البجل بحقنة من النيوسلفرسان ، الدواءالزرنيخي الالماني المشهور . وعلى ان هـــذا السيد يمارس الطب بصورة غـــير مشروعة ، ويبدو لنا مستغلا حين كان يقبض خمسا واربعين ليرة سورية ثمن ابرة لايتجاوز ثمنها الصحيح ليرتين ، فانه يظهر لنا على شيء من الانسانية في قناعته النسبية وفي حذره الذي يمارس به التطبيب . فهو لا يمد يده الى مريض ما لم يكن واثقا من اصابته بالبجل ، وليس غير البجل ، واذا ما قصده قاصد لغير هذا الداء تورّع عن معالجته مهما الحّ عليه ذلك القاصد او بذل له من المغريات .

لا مفر لنا اذن من ان نعد السيد حسين وامثاله فئة رحيمة بـــين المشعوذين اذا ما قارناهم بالفئات الاخرى . من هذه الفئات الاخرى مدّعو المشيخة الذين يكورّون على رؤوسهم عمامات ضخمة ويديرون بين اصابعهم سبحات طويلة ، يأتيهم مصاب بحمى مترافقة بآلام المفاصل وتورمها دليل اصابة بالرثية الحادة فيحتجزونه ليتلون عليه العزائـــم ويطلقون حولـــه البخور ، الى ان يتجاوز المرض مرحلة الحـــدة الى الازمان ، متلفا المفاصل مفقرا الدم مضيقا صمامات القلب او ملهبـــا شغافه . ومن هذه الفئات امرأة اسمها سارة اختصت في محيطنا باخراج « الواجعة » من العين . هذه الامرأة يقصدها كثيرون يشكون من ألم اجفانهم او حدقاتهم لمرض او آخر . لكل من هؤلاء تزعم سارة ان

جسما غريبا دخل في عينه فاحدث الألم ، وانها قادرة على اخراج هذا الجسم الغريب بلسانها • وفعلا فان سارة تدير لسانها بين اجفان المشتكي وكرة عينه ثم لا تلبث ان تخرج به حصاة صغيرة ، او بضعة اعواد من القش ، او جرزةصوف بحجم الزيتونة ، كانت قد اخفتها سلفا بين شدقيها ، زاعمة بانها خلصت قاصدها المسكين من سبب شكواه • وتكون مهمتي انا وزملائي من الاطباء ، بعد هذا ، مداواة الالتهابات التي خلفها لسان سارة القذر في العين المتألمة ، وهي التهابات قد تشفى بسرعة ، وقد يطول مدى معالجتها قبل الشفاء ، وقد تنتهي في بعض الاحيان بتقرح القرنية او بفقدان البصر جزئيا او كليا •••

هذه الفئة وتلك اضاف افرادهما الى ممارستهم غير المشروعة للتطبيب ، والى ابتزاز مال قاصديهم من السذّج والجهلة ، اذى ضعف او اشتد في اجسام اولئك القاصدين • واخطر منهم واكثر جناية فئة هذا الذي داوى الطفل بالدلج بالماء والملح ، وبالكي بالنار ، ثم احتجزه مشددا على اهله ان لا يعرضوه على طبيب له معرفة بدائه ، غير متورع من ان يتسبب في تفاقم مرض الطفل الذي قاده الى منيته ، كل ذلك تسترا على دريهمات قبضها من شعوذته وتدجيله • انها درجة في التدجيل ادنى من غيرها بكثير ، والدجالون ، كما رأينا درجات ، او دركات •••

* * *

لافي الرشود الهيلم

اتممت معاينته ، وكتبت له وصفة بدوائه قدمتها اليه ، فقال :

ــ كم عليّ ان ادفع ؟

قلت : عشر ليرات .

قال : ولك دين عليّ . اريد ان ادفعه الآن .

سألت : دين ؟

قال : نعم ، ألا تذكره ؟ ارجع الى دفاترك .

قلت : ليس عندي دفاتر .

والواقع ان ليس في عيادتي دفاتر دين ، ولا جريت على ان يكون مالا يدفعه مرضاي لي دينا ، والا لكنت مضطرا الى ان اعين جابيا متخصصا يركض وراء الذين يتداوون عندي ولا يدفعون ما يستحق عليهم . واضفت :

ــ قد تكون دخلت عيادتي قبل الآن ، ولكني لا أذكر متى .

قال : انا اذكر ديني . لك عليّ ما يقارب خمسين ليرة ... بل خمسون ليرة على التمام .

خمسون ليرة ؟ لابد انه دين قديم ، يرجع الى سنين عديدة . قبل تلك السنين لم تكن في بلدتي ، وكانت صغيرة آنذاك ، صيدلية ولا كان

فيها ممرض • كان عليّ ان اوفر الدواء للمرضى بنفسي وأن اتولى ، عند الحاجة ، زرق الابر لهم • كان ممكنا في تلك الايام ان يتجمع لي في ذمة احد المرضى مثل هذا المبلغ الكبير بالنسبة الى تعرفة المعاينة ، وهي لا تتجاوز عشر ليرات • سألته :

ــ منذ متى تداويت عندي ؟

قال : منذ زمن • ما كنت في البلاد هذه المدة • رحلت الى نجد والكويت ، وعدت الى هنا منذ قليل • اسمي لافي الرشود الهيلم •

هذا الاسم الغريب • غير المألوف،اوضح لي الامر بعض الايضاح• انه اسم بدوي ، وهؤلاء البدو مشهورون بأمانتهم والوفاء بذمتهم • رجعت الى السجل الوحيد الذي احتفظ بـه في عملي ، وهو سجلّ الذين اصورهم شعاعيا فوجدت ذلك الاسم بعد عناء • وجدته مسجلا قبل ثلاثة عشر عاما ، فأنا كنت صورت صدره شعاعيا في ذلك الحين • قلت له :

ــ وجدت اسمك • اما الدين فما عرفت مقداره •

قال : يا خوي ، أنا اعرفه ••• خمسين ليرة •

ودفع الرجل دينه الذي ما تذكرته ولا تذكرت كم يبلغ ، ولملم عباءته حول جسمه وخرج من العيادة ببساطة ، ودون تعقيب •

قلت ان لافي الرشود الهيلم بدوي • وقد لا يدرك كل القراء الناس الذين اعنيهم حين اذكر كلمة البدو • فابناء المدن ينعتون بالبداوة كل من خرج عن نطاق المدينة ، او كل من لبس العقال والعباءة ، سواء مسكنه القرية او القفر • وليس هذا من الصواب في شيء • والتفريق بين البدو الحقيقيين وسواهم أمر يعرفه الطبيب الريفي ، ولا بد له من

ان يعرفه ، لانه يحتاج اليه في معاملته مع المرضى ويعينه في معالجتهم وحتى في تشخيصه لامراضهم .

البدو عندنا في وادي الفرات هم سكان البادية حقا ، من ابناء العشائر العربية الخالصة التي ظلت الى زمن قريب ترعى الابل ، ولا تسكن الا اخبية الشعر ، وتتنقل بحثا عن مراعي الكلأ بين مناطق نجد في الجنوب واعلى الجزيرة الفراتية في الشمال . وهي في هذا تختلف عن العشائر العربية الاخرى ، الخالصة النسب ايضا ، التي تنعت بنصف الحضرية لانها سكنت المنازل القروية الثابتة منذ زمن بعيد ، مع تنقل محدود في السهول المعشبة ، وامتلكت الشياه دون الابل ، وانصرفت الى الزراعة اكثر من انصرافها الى رعي المواشي . فروق في اساليب المعيشة تتصل بفروق في النسب ، فأغلب قبائل البدو عدنانية الاصول ، بينما ترجع القبائل نصف الحضرية الى اصول يمنية . وتنتهي هذه وتلك الى فروق في الاخلاق والسلوك وطرق المعاملة . فالبدوي على مابه من جهل وبعد عن التمدن يتصف بالتهذيب في الحديث وقلة الفضول في الكلام ، وبالصبر على الألم والتفاؤل في مواجهة المرض أيا كانت خطورته . اذا سألت بدويا عن حاله بعد يومين او ثلاثة من معالجة دائه المستعصي ، اجده يحمد الله ويشكرني ، انا طبيبه المعالج ، ويلتمس دلائل الشفاء في اقل تحسن يشعر به . اما الآخرون فقد يبرؤون تمام البرء من امراضهم ولكنهم يظلون يتلومون ويتشكون ، كأنهم يريدون ان ينكروا على الطبيب جهده او يبتزوا منه اكبر قدر من الاهتمام بهم . وانا اثق ، في العادة ، كل الثقة بكلام بدوي يشكو لي داءه . فهو يحدد هذا الداء ولا يتزيد في شكواه . بينما اظل متشككا من اقوال الآخرين الذين يغمغمون ويضللون زيادة او

نقصا . وفي ظنهم انهم يحتاطون بهذا التضليل لصالحهم ، وهم لايدرون أي ضرر تلحقه بصالحهم مخادعتهم للطبيب .

هذا كله ـ عند البدو ـ الى جانب الامانة التي ضربت لها مثلا ، في اول هذا الفصل ـ حواري مع لافي الرشود الهيلم . وليس لافي اول بدوي يدفع لي دينا لا اذكره ـ دون مطالبة مني له ـ وبعد مدة من الزمن تراوح بين ايام قليلة وسنين عديدة . فقد ألفت ان اتولى بالمعالجة احدهم اياما كثيرة . فاذا تماثل للشفاء قال لي وهو يتهيأ لمغادرة البلد الى منتجعه البعيد : « يا فلان : ليس عندي حقك ، واذا بقيت طيّبا وفيتك اياه ! » وأتركه يذهب...فانا واثق من انه يعني ما يقول، وانه سيوفيني حقي ـ اذا ظل حيا ـ واذا حصل هذا الحق في حوزته .

ومن خصائص اولئك البدو اباؤهم وحرصهم على كرامتهم ، ولو كان واحدهم في مسيس الحاجة ماديا او في شدة الخطر من المرض . يتدافع الريفيون عادة على باب عيادتي ـ رغم كل تنظيم ، وغاية كل منهم ان يحظى بالدخول والكشف عليه قبل غيره ـ فيتعرضون في كل آن لزجري او لصراخ الممرض والممرضة بهم ودفعهما لهم وصفق الباب في وجوههم . وفي هذه الحالات تلمح عيني دوما بدويا او بدوية منتبذين زاوية من صالة الانتظار ـ يتطلعان في سكون الى الضوضاء ومسببيها ، لا يتقدمان الى باب الدخول ، مهما كانت عليه حالهما من السوء ، الا حين يؤذن لهما او ينادى عليهما باسمهما . واذا لم يكن في طاقة البدوي ان يتحمل تكاليف معالجة ما فانه لا يستحي ان يصرّح بذلك ، ولا يتردد عن ان يضرب صفحا عن تلك المعالجة ، فينصرف متحملا داءه،بصمتوصبر يحسده عليهما اشد الرواقيين ايمانا بفلسفته.

اذكر سنة قحط مرت بريفنا الجأت البدو الى ان ينحدروا من باديتهم نحو شاطىء الفرات ، ليعملوا بايديهم في جني القطن . كان الواحد منهم يجني ثلاثين كيلو قطنا في اليوم ، اجرته على جنيها ليرة ونصف الليرة ، عن كل كيلو فرنك واحد . في تلك الايام جاءني بدوي بابنته المصابة بالحصبة . كان قد فقد في اليومين الفائتين ابنتين له بهذا الداء،لابد من انهما ماتتا بذات قصبات ورئة نزلت في جسدين ضاويين ضعيفين لقلة التغذية وسوء الشروط الصحية . وهذه الثالثة كانت بحالة خطرة . قلت له : طفلتك تحتاج الى معالجتها ثلاثة ايام على الاقل، تأتي بها الي صباحا ومساء في كل يوم لازرقها ابرتين، والمعالجة تكلفك يوميا ست ليرات . فسكت الرجل قليلا . اظنه كان يحسب في ذهنه انه وزوجته يعملان بثلاث ليرات يوميا ، فمن اين يأتي بست ليرات كل يوم لمعالجة هذه الابنة ؟ واخيرا هزّ رأسه وقال : لا اقدر على مداواتها ، اذ ليس عندي ما تطلبه . قلت له : لابأس ، لا تدفع لي شيئا الآن ، انا اداوي الطفلة وبعد ان تشفى تدفع لي ما بذمتك . فهز رأسه مرة اخرى وقال : لا ، لاتداوها ... لن اتمكن من ان ادفع لك شيئا . لا الآن ولا بعد ان تشفى . قلت له ارجئك ثلاثة شهور بعد اليوم . فسكت قليلا ، كأنه عاد الى حسابه الذهني لوارده ونفقاته وما يمكن ان يتوفر لديه ، ثم قال في اصرار : لا تداوها ... حتى بعد ثلاثة شهور لا يمكن ان ادفع ديني ...

كان حوارا مضحكا ، ومؤسيا كذلك ، ذاك الذي دار بيني وبين الاب المتعنت . كنت مصرا علىمداواة الطفلة ، ولا استطيع ان اقول لذلك البدوي اني على استعداد لمعالجة ابنته دون مقابل ، لاني اعرف انه ما كان ليقبل ذاك مني . كلما استطعت ان افعله هو اني رحت امدد

له اجل وفاء الدين . ولم يرض ان اباشر في المعالجة الا حين قلت له اني امهله الى وقت يستطيع ان يفيني ، في السنة القادمة او التي بعدها او التي بعدها . وقبل . وتماثلت البنية للشفاء في اليومين الاولين ، ومع ذلك فقد طالبته ان يعيدها اليّ يوما ثالثا لنضمن لها البرء التام . غير انه عاد اليّ في الصباح وحيدا ليقول لي بانه لم يحضر البنت ، التي تحسنت حالتها ، لانه يحس بأنه ربما عجز عن وفاء دينه كاملا ... ذلك الدين الذي لن يبلغ بحال من الاحوال العشرين من الليرات !

والصحيح اني لا اذكر الآن اذا كان ذلك البدوي ، الذي ماعرفت اسمه ، قد عاد اليّ فوفى بذمته ام لا . ولكني واثق من انه اذا لم يكن قد فعل فذاك اما لأن المبلغ لم يحصل في حوزته محررا ، واما لانه لم يظل طيبا ، على حد تعبير البدوي حين يعدني بوفاء دينه . والا لما كان هذا الرجل ، الذي سررت بشفاء طفلته اكثر من سروري بكل مال يعطينيه ، دون لافي الرشود الهيلم الذي عاد اليّ بعد ثلاثة عشر عاما ليدفع لي خمسين ليرة لم اضعها في حسابي ولا خطرت قبل ذلك ببالي.



سؤال ، والف جواب

منذ ألف وثلاثمائة عام قال جميل بثينة بيت شعر جرى نصفه الاخير على الالسنة مجرى المثل • قال جميل :

وقلنا لها قولا فجاءت بمثله　　لكل سؤال يا بثين جواب

على ان جميل بثينة لم يعمل طبيبا في الريف مثلي • لو انه فعل لعلم ان لكل سؤال عددا من الاجوبة ، قد يبلغ الالف احيانا • لنأخذ على ذلك مثلا هذا الحوار الذي يدور في عيادة ريفية ، بين طبيب ومريضة جاءت تبحث عن برء لدائها الذي تشكو منه :

الطبيب : وجع تحسين به في خاصرتك ••• حسنا ••• منذ متى بدأ هذا الوجع ؟

المريضة : من زمان يا دكتور ••• من مدة •

الطبيب : كم هي هذه المدة ؟ على التقريب •••

المريضة : اقول مدة ••• اقصد قطعة ايام •

الطبيب : هذه الايام كم عددها؟خمسة ايام؟••عشرون يوما؟•• خمسون ؟

المريضة : نحو هذا العدد •

الطبيب :، أي عدد تقصدين ؟ ارجوك ••• حددي لي زمنا • هل احسست بهذا الوجع منذ خمسة ايام ؟

المريضة : لا ... بل قبل ذاك بكثير .

الطبيب : لنقل منذ شهر ...

المريضة : لا ... بعد ذاك بكثير . دعني اتذكر ... بدأ قبل هبوب الريح الشرقية باربعة ايام ...

الطبيب : وما ادراني انا متى هبت تلك الريح المباركة ؟

المريضة : الريح الشرقية ليست مباركة يا دكتور . لهفت زرع احمد الحمود ، فلم تترك فيه سنبلة الا احرقتها ...

الطبيب : ياستي ... يا ستي ... قولي لي باختصار : متى شعرت بوجع خاصرتك ؟

المريضة : ولماذا الزعل يا دكتور ؟ انا اقول لك : ليلة عرس حليمة بنت عمة امي... في الصباح ذبحوا كبشا... اهدونا من وليمتهم... اكلنا من ثريدهم لقمة او لقمتين ، قل ثلاثا . وفي المساء قلت لعمك حسين ، زوجي ، يا حسين نفسي انقطع ... دخيلك ...

الخ ... الخ ...

هذا نموذج ، شديد الاختصار ، لحوار بين مريضة وطبيب ريفي يحاول ان يعرف منها بدء الوجع الذي جاءت تشكو منه اليه . سؤال هو ابسط الاسئلة : متى بدأ الوجع ، يصبح الجواب عليه معضلة اوتيها يتخبط فيه المريض جارا طبيبه وراءه . الوقت عند مرضى الريف ، مثله عند اصحائهم ، لا قيمة له تذكر ولا حدود تعرف . فالاعوام لا تؤرخ بالميلادي او بالهجري ، بل بصفاتها والاحداث الجارية فيها : سنة المحل ، او سنة الكمأة ، او السنة التي مات فيها عمك عيسى الحاصود ، وهو ليس عمك ولم يسبق انسمعت باسمه قبل اليوم . ويقول لك

البدوي ان ابنه ولد في قصّير او في الأسْود . فعليك ان تعرف ان قصّيرا هو اسم لشهر رجب . وان الأسْود هو شهر شعبان . واذا قالت لك قروية حبلى ان نزفها بدأ قبل البازار بثلاثة ايام ، فلا يكفيك ان تعرف ان البازار هو يوم السوق الاسبوعية في القرية ، اذ يتوجب عليك ان تعيّن القرية التي تنتمي اليها مريضتك لتعرف أيّ بازار تقصد . فالبازار الاسبوعي يقوم في قرية ابي هريرة نهار الاحد ، وفي مسكنة نهار الثلاثاء ، وفي دير حافر يوم الخميس ... وتحتاج انت الى عقل الكتروني لتحدد اليوم الذي بدأت فيه قرويتك هذه نزفها لترى فيها رأيك : هل قاربت ان تجهض ، ام انك تستطيع اعانتها ليتوقف النزيف ويستمر حملها حتى غايته . ولا زلت اذكر ذلك التاريخ الذي سمعته من فلاّحة سألتها عن عمر وليدها الذي جاءت لتعالجه عندي . قلت لها : كم عمر ابنك ؟ فتوقفت قليلا لتجيب : ولدته في السنة الفائتة ، ايام الكازوز ! وتساءلت في نفسي عن ايام الكازوز هذه ، متى تكون . وبعد محاكمة ذهنية قصيرة ادركت ان تلك المرأة تعني بذلك التاريخ اوائل الصيف حين يستورد المشروب الغازي ، الكازوز ، من المدينة الكبيرة الى بلدتنا الصغيرة ، فيرى فيه الفلاحون ، في القيظ والشظف ، ترفا يستحق ان تؤرخ الايام بوروده ...

لقد علمنا اساتذتنا اثناء دراستنا الطب ان الاستجواب ، استجواب الطبيب للمريض عن شكواه ، عنصر مهم من عناصر التشخيص علينا ان ندقق فيه وان نتجاوز به شكوى المريض الحالية الى السؤال عن سوابقه الشخصية في المرض ، بل وان نسأله عن الحالة الصحية لذويه من آباء واجداد . فقد تكون شكوى المريض اليوم ذات صلة بامراض آبائه السالفين . فالآباء لا يورثون الابناء دورهم واموالهم ، وملامحهم

وصفاتهم ، فحسب ، بـل يورثونهم النقائص والعاهات ويزرعون في أجسادهم الجراثيم والآفات • وسامح الله اولئك الاساتذة على مـا ذكروا لنا عن الاستجواب ! كان عليهم ان يمارسوا فنهم في عياداتنا في الريف ، ويتعرفوا الى مرضانا ، ليدركوا أيّ عناء يكلفنا الاستجواب الذي قالوا لنا انه عملية بسيطة المباشرة على كبر الفائدة المجتناة منها • سؤال واحد ، من اسئلة الاستجواب ، قد يكون له عند المريض ألف جواب ، كما اسلفت • هذا في الواقع شيء معنت للطبيب ، مزعج له ومثير لاعصابه • على انه قد يكون اشد اعناتا للطبيب نفسه ان لايكون لسؤاله أيّ جواب • وهذا الامر الأخير يحدث كثيرا ، ولا سيما حين يلقي احدنا على مريضه السؤال الاول ، والجوهري ، في كل معاينة طبية : مم تشكو ؟ ماذا يوجعك ؟

والعادة ان مرضانا مـا ان يسمعوا منا هـذا السؤال الاول ، والجوهري ، حتى ينطلقوا في الاجابة عليه ، باختصار احيانا وبافاضة مفرطة احيانا اخرى • ولكن كثيرا منهم ، عندنا ، يتجاهلون الاجابة عليه ويتطلعون اليك انت الطبيب باستغراب ، او بنظرة تحدٍّ ، ومرات بنظرة استصغار • يقول لك مريض منهم مثلا : انا امامك ، فانظر اين مرضي ! وتقول لك احدى المريضات : لو كنت اعرف ما هو وجعي لما جئت اليك ••• اذن لداويت نفسي بنفسي ! وتزوي فتاة مدللة وجهها عنك مستغربة سؤالك وهي تقول : اذا كنت تريد ان ادلك على مرضي فما نفع ان تكون طبيبا ؟! ومن عادتي ان اتلقى كل هذه الاجوبة من مرضاي بصدر رحب ، واروح احاورهم واداورهم الى ان اصل الى ما احب معرفته منهم • ولكني لا اعدم في كثرة الوافدين الى عيادتي وتنوع عقلياتهم من يثيرني بانغلاق فهمه او مكابرته في جهله او بردّه

عليّ بصلف وتحدّ ، فيجعلني افتح عينيه بعنف على مصلحته في مساعدتي في التعرف على شكواه . ووصل بي الامر في احدى المرات ، وربما في اكثر من مرة ، ان قلت للمريض الذي ابى ان يعينني بكلمة واحدة على تشخيص دائه : اسمع يا هذا ... انا طبيب الاوادم الذين يسمعون ويعون ويجيبون على ما يلقى عليهم من اسئلة . اما العجماوات البهائم ، التي لا تجيب على سؤال ، فان لها طبيبا آخر اسمه البيطار !

وانا اقرّ بأن جملتي التي قلتها هذه كانت تعليقا قاسيا على تشبث مريضي ذاك بما اوحاه اليه جهله من اخفاء شكواه عليّ ، كما أقرّ بأن ليس كل مرضاي بهذا الجهل ولا بهذا التشبث . ولكن ما من طبيب ، في كل مكان وفي الريف اكثر من غيره ، لم يبتل بمثل هذه النماذج من الناس . وبين مريض لا يجيب على سؤال بكلمة وآخر يجيب على سؤال واحد بألف جواب ليس في واحد منها غنى ، يتبين ان المثل الذي ساقه جميل بثينة في بيته الذي ذكرته اعلاه ـ لكل سؤال يا بثين جواب ـ قد يصدق في كل الاحوال الا في حال طبيب في عيادة في الريف ...

* * *

هذا السائل الذهبي ...

في جلسة المساء التي تعقد كل يوم في مضافة الاسرة ، والتي احضرها انا بعد انتهاء عملي في العيادة ، قال الخال بشير :

ـ اريد ان اسألك ياحكيم ... هل صحيح ان بول تيس الغزال يشفي من الربو ؟

ضحكت انا وقلت : هذا امر لم يدرس في المخابر ولم تجر عليه التجارب في المستشفيات . من اين جئت بهذا الطب الجديد ؟

قال : لم آت به من عندي . ولكني اروي لك حكاية . تعرف ان عندنا غزالا ذكرا . ربيناه منذ ان كان خشفا صغيرا الى ان صار تيسا ضخما ذا قرون . هو لايألف احدا غيري ، ومن قاربه أصبح من ضربة قرنيه على خطر .

قلت : اعرفه . ضمدت مرة جرحا في ساق احد اطفالكم من جراء نطحة من ذينك القرنين ...

قال : هذا صحيح . ومنذ ايام عدت الى منزلنا في الضحى فوجدت رجلا لااعرفه منتحيا في ساحة الدار ، جالسا بالقرب من مربط الغزال. سلمت عليه وسألته عما يريد . قال لي انه جاء في طلب بول هذا التيس. فهو مصاب بالربو ، تطبب منه كثيرا فلم تتحسن حاله . وقد وصف له بعضهم بول تيس الغزال ، يشربه على الريق ، ففيه الشفاء من ذلك

الداء • واضاف : عرفت ان عندكم هذا التيس • ومنذ الصباح وانا احاوره فلا اقدر على الاقتراب منه • مرة يرفسني ، ومرة ينطحني • في احدى نطحاته كاد يبقر بطني بقرنيه المحددين هذين •••

ضحكت انا ثانية وسألت الخال بشير : هذه وصفة عجيبة للشفاء من الربو • كيف كان يطمع صاحبك هذا بأن يحصل على بول الغزال ؟ اتراه يبول في ساعة معينة ؟

قال : لا ادري • كان الرجل يحمل اناء يحاول دسه بين رجلي الحيوان فلا يستطيع • رأيته ملهوفا فاشفقت عليه ، وجئت بكيس من النايلون وضعته تحت بطن الغزال ، في مؤخرته • واثبته على الظهر بخيط ، وقلت له : اصبر حتى يتجمع لك من البول ماتراه كافيا لجرعتك الدوائية ، حينئذ احل انا الكيس واعطيك اياه • وهكذا كان • ورأيت الرجل يسكب ماتجمع في كيس النايلون من البول في الاناء ويجرعه دفعة واحدة ، وقد اغمض عينيه وزوى شفتيه •

قال احد المستمعين في المضافة متقززا : وشرب البول ؟ اي نفس له ذلك الرجل ؟!

قال الخال بشير:لايسوق على المرء الا ما هو أمر ! لو لم يكن مضطراً لما اقدم على شرب البول • ليس المهم هذا • المهم انه جاءني بعد ايام ، متهلل الوجه ، وهو يرجوني ان اعينه في الحصول على جرعة ثانية من بول غزالنا • قال لي ان ضيق صدره زال وانه يشعر بتحسن كبير • اعدت العملية وشرب الرجل حفنة اخرى من بول التيس ، وذهب فلم اره بعد ذلك • لعله شفي تماما من مرضه • ولهذا سألت الحكيم عما اذا كان شرب بول تيس الغزال يشفي من الربو •••

قال رجل من الحضور مازحا : اذا وافقك الاطباء على ماتقول فان هذا سيفتح لك بابا من الرزق • عندها تعبىء بول غزالك في قناني مختومة وتبيعها للمصابين بضيق النفس وصعوبة الشهيق والزفير •••

قلت انا جادا : اما عن فائدة بول تيس الغزال في الشفاء من الربو فامر لم يخطر على بال باحث علمي ، وهو شيء غير عملي ، على رغم احتواء البول مواد مختلفة بعضها قريب في تركيبه من الكورتيزونات ذات الاثر في تسكين نوبات الربو • ومع ذلك فان صاحبك قد يكون صادقا في قوله ان حاله تحسنت بعد شرب الجرعة الاولى من بول التيس ••• اولا لان الربو يأتي بشكل هجمات متقطعة ، تزول احيانا من غير تناول اي علاج ، وثانيا لان هذا الداء يتأثر كثيرا بالعوامل النفسية • على طاولتي الآن كتاب علمي حديث الصدور يرد كل حالات الربو ، حتى ما كان منها تحسسيا باحدى المواد المعروفة ، الى سبب نفسي • واقدام الرجل على ذاك العمل الكريه ، اعني شرب بول الحيوان ، قد يكون احدث فيه تغييرا نفسيا قطع السلسلة الانفعالية التي تسببت في اطلاق نوبات الربو •

قال ابو غسان ، وكان واحدا من الجالسين في المضافة : كلام الحكيم ، وان كنت لم افهمه على التمام ، مقنع • اذا تجاوزنا تقززنا واشمئزاز نفوسنا ، فان طعم البول ، على مايبدو ، غير مكروه •

ارتفع صوت احدهم قائلا في استهجان : كأنك ذقته !

قال ابوغسان : لا • وانما هكذا اخبرني دانييل •

فسأله المستهجن : أي دانييل هذا ؟

قال : دانييل الحلاق ، ابن ساكو • كلكم يعرفه • انه مصاب بالداء

السكري ، مثلي . منذ خمسة وعشرين عاما لم يكن احد يعرف مرض السكر في نواحينا . كنت انا المريض الوحيد به في البلد . اما اليوم فقد اصبحنا والحمد لله كثيرين ، يعرف بعضنا بعضا ... تتبادل الوصفات العربية المجربة ، واذا التقينا سأل كل منا الآخر عن حاله ، واخبره بآخر ماسمعه من الاذاعات عن طرق معالجة السكري الجديدة. ودانييل بن ساكو واحد منا . التقيت به منذ ايام فسألني عن سكري ، فاجبته بأنه ليس على مايرام ... فأنا اشرب كثيرا واتبول كثيرا بالرغم من الحمية ، والتحليل الأخير اعطى فوق الغرامين من السكر في الدم . قال : اما انا فاني مرتاح جدا هذا الزمان . قلت له : هل حللت ؟ قال بعربيته المحطمة بلهجته الارمنية : ولماذا احلل جانم ؟ في كل صباح اضع قليلا من بولي في فنجان ، واذوقه بلساني ... في الايام الاخيرة لم تعد لبولي حلاوة ... حتى اني لم اعد اجد لذة في تذوقه !

ضحكت انا لهذه الطريقة الطريفة في تحليل البول تحريا عن وجود السكر فيه ، بينما قال الخال علي ، وهو يشترك لاول مرة في الحديث:

ـ يبدو ان لهذا السائل الكريه ، بول الانسان والحيوان ، فوائد طبية كثيرة لايعرفها ابن اختي الطبيب . اما انا فأعرف له فوائد اخرى، غير طبية ...

قال ابو غسان : لعلك تقصد فائدته في التجميل . البدو يعرفون هذه الفائدة من زمن بعيد . عندما تريد فتياتهم التزين فانهن يغسلن رؤوسهن ببول الاباعر ، فتصبح شعورهن شقراء ذهبية ، مثل جدائل بنات الافرنج .

قلت : هذا فعل غاز الامونياك الذي يحتويه البول المتخمر ... زينة بدائية ، مبنية على مبدأ علمي .

قال الخال علي : انا لا اقصد هذا . اقصد فائـدة اخـرى اقص عليكم قصتها . منذ سنين سافرت من حلب الى قرية سفيرة في قضاء جبل سمعان ، في شغل لي . في تلك الايام كانت وسائل السفر قليلـة والبلاد منقطعا بعضها عن بعض . كنا خمسة غير السائق ، اربعة رجال وامرأة من تلك القرى في متوسط العمر ، بيضاء طويلة القامة وبدينة ، اسمها ام محمود . في منتصف الطريق توقفت السيارة عن السير وهب بخار كالدخان من مقدمتها . نزل السائق ونزلنا معه ، وبعد ان رفـع غطاء المحرك رأيناه يضرب كفا بكف وهو يقول : فورت السيارة ... نشف ماؤها وليس عندنا ماء، ولا حولنا ! وحقا لقد كنا في بادية جرداء، لاخضرة فيها ولا عمران . وتفرقنا تحت الشمس المحرقـة في انتظار سيارة تمر على هذه الطريق المهجورة لنستنجد بها . طال انتظارنـا ، فنادانا السائق ، نحن الرجال ، وقال : اما فيكـم احد يشعر بحاجـة للتبول ؟ قلنا له : ماذا تعني ؟ قال : بعض السائل في رادياتور السيارة. ولو كان بولا آدميا ، يساعد على تبريد المحرك وفي ايصالنا الى اقرب قرية ! كان حلا لم يخطر على بال غير السائق . صعد اثنان منا ، علـى التوالي . فوق مقدمة السيارة وفي ظنهما ان محتوى مثانتهما سيحـل مشكلة ماء الرادياتور . ولكن تقديرهما كان خاطئا ، فلم يستطيعا ان يملاه بما يغني . وكانت ام محمود بعيدة عنا ، فلما رأت تجمعنا جاءت تتساءل . قلنا للسائق : افهمها . فافهمها الحكايـة . قالت : ياعـين عمتك ... لماذا لم تقل هذا من الاول ؟ ساعدوني على الصعود فوق هذه الحدائد . وابتعدوا عن عمتكم قليلا . وهكذا فعلنا . اعانها اثنان

منا على الارتفاع بجثتها الضخمة فوق العارضة التي تقوم فتحة الرادياتور فيها ، وابتعدنا كثيرا مديرين وجوهنا عن السيارة والراكبة الجاثمة فوقها . وسمعناها تنادينا لننزلها من مرقاها . وحين عدنا رأينا فوهة الرادياتور تطفح بسائل ذهبي ذي رغوة شقراء تفور على جوانبها... وهو بول عمتنا ام محمود . وهكذا استأنفنا السير على بركة الله ...

ضحكنا جميعا . وعقب ابو غسان على حكاية الخال علي بقوله : من يدري ؟ لعل ام محمود من زمرتنا ، انا ودانييل وجماعة السكري الآخرين ، والا فمن اين لها بمخزون من ذلك السائل الاشقر قادر على ملء رادياتور سيارة منقطعة على طريق حلب ــ سفيرة؟ ماقولك ياطبيب؟

فلم يجب الطبيب ، الذي هو انا ، بغير الضحك من هذه الفوائد ، التي لم اقرأها في كتاب طبي ، لمفرز الكليتين الذهبي اللون الطارح لسموم البدن وفضلاته .



« مالطة يوق » في الطب

دخل عليّ عيادتي في يوم من ايام الربيع شاب يختلف في هيأته وفي لباسه عن المرضى المتجمهرين في زحامهم المعتاد حولي وقال :

ـ عن اذنك يادكتور ...

قلت : تفضل .

قال : لست مريضا ، ولكني منتدب من وزارة الصحة للبحث عن وافدة حبة السنة التي اخبرونا بأنها متفشية في هذه المنطقة . انا هنا منذ ايام ولم اجد حادثة واحدة بين مراجعي المستوصفات الرسمية . وقد قيل لي انك اخبرت عن حوادث كثيرة منها ، فهل يمكن ان تحيل اليّ اصابات هذه الحبة التي تراها بين مرضاك ؟

ضحكت . ان حوادث حبة السنة قد تفشت حقا في منطقتناالريفية منذ سنين عديدة ، الا اني على الرغم من ذلك واثق بأن هذا المنتدب الموفود سيعود الى مقر وزارة الصحة في العاصمة دون ان يرى حادثة واحدة منها ، وواثق من انه سيكتب لرؤسائه تقريرا عن زيارته ينفي فيه وجود اثر لهذا الداء في وادي الفرات ، لانه لم يقع عليه في جولته. سيكون تقريره مشابها لتقرير امير البحر العثماني الذي بعثه السلطان في ذات يوم لاحتلال جزيرة مالطة وطرد الانكليز منها . جاب امير البحر ذاك البحر الابيض المتوسط طولا وعرضا ، ولكن سفينته لم

تصطدم بشواطىء الجزيرة الصغيرة . فكان ان عاد الى السلطان فيدار السعادة اسطنبول ، وبعد ان قبل الارض امام جلالته وحياه التحية الشاهانية رفع رأسه وصاح : « افندم ، مالطه يوق . » يعني ان ليس لمالطة وجود ... فمثلما بحث امير البحر العثماني عن مالطه في غير مكانها فلم يجدها ، لم يجد الموفد الصحي حبة السنة في منطقتنا ، لانه بحث عنها في غير زمانها .

وحبة السنة آفة جلدية يسببها نوع من الطفيليات هي اللايشمانيا، التي تنتقل الى الانسان بلدغة ذبابة معينة تسمى فليبوتوموس او خازع الوريد . يختلف اسم حبة السنة من بلد الى آخر . ففي سورية تدعى حبة حلب او داغة حلب ، وفي العراق حبة بغداد ، وفي الجزائر حبة بسكرة ، لان اصاباتها تكثر في هذه المدن . ويعود السبب في ذلك الى ان البعوض الناقل للطفيلي المرض لايعيش الا في شروط معينة من الظلام والرطوبة والحرارة تتوفر في الصهاريج ، وهي آبار كانت تختزن فيها في حلب مياه الامطار حين كان أهلها يعتمدون على الصهاريج كمورد للمياه ، وفي مجتمعات المياه المماثلة في المدن الاخرى التي سميتها . ولذا فانه منذ جرت مياه الفرات الى مدينة حلب واستغنى الناس فيها عن مياه الصهاريج المجموعة انقرضت منها حبة السنة ، واختفت من وجوه سكانها آثار تلك الحبة المشوهة التي كانت تتظاهر بندبة كبيرة لايعتبر الحلبي اصيلا الا اذا حملها في احدى وجنتيه ، او في كليهما. ومثل حلب ، تخلصت كثير من البلاد التي اشتهرت بحبة السنة من هذه الآفة ، تبعا لتحسن الاحوال الصحية فيها . وبجر مياه الشرب اليها والاستغناء عن مجاميع المياه الموبوءة التي كانت أوكارا مظلمة رطبة صالحة لتعشيش انواع البعوض الناقل للامراض المختلفة .

على ان اصابات حبة السنة اذا كانت قد اختفت من المدن التي كانت تشتهر بها فانها انبعثت من جديد في ريفنا ، في مناطق كانت قبل خلـوا منها ، وفي منطقة وادي الفرات على الاخص التي ماكان الذباب خازع الوريد يجد فيها ، حتى قبل خمسة عشر عاما ، مكانا يبيض فيه ويفرخ. فمنذ انتشرت زراعة القطن على ضفتي نهر الفرات توفرت في هاتـين الضفتين بيئة جديدة سكنها الذباب الناقل لطفيليات اللايشمانيا وتكاثر فيها ، واخذ ينطلق منها بغاراته على وجوه العاملين في حقول القطـن واطرافهم المكشوفة . غارسا في بشرتها خراطيمه الملوثة . ملقحا اياها بالطفيليات التي تلهب الجلد وتقرحه وتؤدي الى ظهور حبـة السنـة عليه . ولان شجيرة القطن تنمو وتتكاثف اوراقها ابتداء من منتصف الصيف ، فان البعوض خازع الوريد لايثبت وجوده ولايباشر غاراتـه الا بعد هذا الزمن من كل عام ، بعد ان يكون قد ترعرع في ظل شجيرة القطن النامية وتنعم بدفئها ورطوبتها . فاذا انتهى موسم القطن بحلول الخريف وتحولت شجيراته الى حطب يابس توقفت تلك الغارات بحلول البرد بانتظار استئنافها في الموسم المقبل .

وهكذا الفت في السنين الخمس عشرة الاخيرة ان استقبل في عيادتي، مابين ايلول وتشرين الثاني من كل عام عددا يقل تارة ويكثر اخرى من حاملي حبة السنة ، اغلبهم ان لم يكن كلهم من فلاحـي القطـن نساء ورجالا ، او من اطفال هؤلاء الفلاحين . وكانت اصابات هؤلاء الاطفال، بصورة خاصة ، تحز في نفسـي . غالبا ما كانت تأتيني الام برضيعها وفي وجهه عدة حبات متقرحة ، بعضها على الوجنتين وبعضها عند موقي العينين ، وواحدة منها دوما على ذروة الانف قد ادت الى تضخم هـذه

الذروة بورم متقيح مشوه لوجه الطفل المسكين • ذلك ان الامهات العاملات في الحقول ، حين ينصرفن الى تعشيب الارض حول الشجيرات او حين يجنين اجراس القطن ، يتركن صغارهن في ظل اكثف الشجيرات اوراقا مكشوفي الوجوه ، ولا يدرين انهن بذلك يعرضنهم الى لذع البعوض المعشش في تلك الشجيرات والذي يغير اول مايغير على ابرز نقطة في وجه الرضيع الصغير ، وهي ارنبة انفه • وحين تكاثرت رؤيتي لحوادث هذه الحبة في السنين الاولى لظهورها لم اكتف بالاخبارات الروتينية التي يتوجب على الطبيب الممارس ان يقدمها لدوائر الصحة عن الامراض المعدية او الوافدة ، بل وجدتني مضطرا الى كتابة تقرير بالامر الى السلطات العليا اطلب منها دراسة حوادث حبة السنة مقدمة لاتخاذ التدابير الواقية منها • وما من شك في ان تقريري هذا ، وامثاله مما قد يكون قدمه غيري الى تلك السلطات ، قد لاقى نصيبه من العناية ولم يلق في سلة المهملات • والدليل على ذلك قدوم هذا الموفد الصحي من العاصمة حتى ريفنا النائي • ولكن •••

ولكن يبقى الذنب على الروتين اللامبالي وعلى الاساليب البيروقراطية البطيئة المتبعة في المؤسسات الحكومية ، ومؤسسات الصحة بعض منها • فاذا كانت التقارير الداعية الى الاهتمام بحبة السنة التي كانت مرضا وافدا فاصبح مستوطنا ، تكتب وتوجه الى السلطات ذات العلاقة في ايلول وتشرين ، فان دراسة تلك التقارير والموافقة على ايفاد مبعوث صحي الى منطقة الوباء لاتتمان الا في كانون وشباط ، اما الموفد نفسه فلا يتحرك ركابه الى المنطقة المذكورة قبل آذار او نيسان ، اعني في ربيع العام التالي لعام حدوث الاصابات • من المنطقي اذن ان يجد الموفد الصحي حين يحل المنطقة وجوه الذين أصيبوا بحبة السنة في الخريف

الماضي ملساء ، او قاربت ان تكون كذلك ، بعد ان تندبت التقرحات في تلك الوجوه . ومن المنطقي ان لاتعرض عليه اية حالة جديدة بهذا المرض . كما انه من المنطقي ايضا ان يعود هذا الموفد الى العاصمة ليقدم الى رؤوسائه احتراماته وتحياته الشاهانية ، قائلا لهم ما قاله امير البحر العثماني لسلطانه : افندم ، مالطه يوق ... وحبة السنة كذلك في وادي الفرات يوق ، اي ليس لها وجود !



الذي مالــه أب ...

اليوم جاءتني الفتاة حليمة مريضة ، تصحبها امها ، فاعادت الى بالي حكاية « مالطه يوق » التي ذكرتها في الحلقة السابقة من هذه الاحاديث كما اعادت الى بالي كلمة مأثورة طالما سمعتها من مرضاي عندما تقصر وسائلهم المادية عن متابعة العلاج من ادوائهم، وعندما لا يجدون معينا لهم في التخلص من اوضاعهم الصحية البائسة . هذه الكلمة المأثورة هي قولهم في تلك الظروف : الذي ماله أب ، له رب ....

« الذي ماله أب ، له رب » ... كلمة طالما وجدتني مضطرا الى استخدامها في مثل حالة حليمة التي جاءتني اليوم . وحليمة هذه صبية في الثالثة عشرة من عمرها ، يبدو على وجهها الشحوب الشمعي الــذي يتميز به المصابون بفقر دم ناجم عن نزوف ضئيلة ومتكررة . سألتها عما بها فلم تجب ، بينما تقدمت امها مقربة رأسها مني لتهمس في اذني كلمات تغمغم بها ولاتفصح . من طريقة كلام الام ، وقبل ان افهم مــا تلفظت به ، عرفت ان شكوى بنتها تتعلق بالنصف السفلي من الجسد، وهو ما يستحي رجال الريف من عرض عللهم فيه على الاطباء ، فكيف بالنساء فيه . وعلمت في النهاية ان الصبية تنزف دما من مجرى البول منذ اسبوع وأكثر ، وان النزف مترافق بحرقة مؤلمة ، وانها كتمت الامر عن اهلها في البدء حتى وصلت حالها الى ماهي عليه الآن . واضافت الام على مافضت به من معلومات قولها : منذ شربنا ماء تلك البئر كثرت

اصابة الناس بنزيف الدم وبالحرقة الموجعة ، حتى الضيوف الذين يجيئون قريتنا يعودون الى اهلهم وهم يشتكون من دم في ابوالهم ومن قطع جامدة فيها كاللحم المهترىء ...

استرعت انتباهي كلمات الام الاخيرة فسألتها : من اين انتم ؟ قالت من الشمال ، شرق عين عيسى وبعيدا قليلا عنها ، وقريتنا اسمهاالعماير . سألتها : وهذه البئر التي تشربون منها ، ماهي ؟ قالت : بئر نباعة ، من هذه التي يغرسون في ارضها البواري فيخرج ماؤها بنفسه الى سطح الارض . كانت تعني بئرا من الارتوازيات التي كثر استنباطها في بوادينا ، اما عين عيسى التي سمتها فناحية تبعد عن بلدنا نحوا من سبعين كيلو مترا الى الشمال . تذكرت عند هذا الاسرة التي جاءتني من منطقة عين عيسى نفسها منذ شهرين ، ويشتكي افرادها نفس شكوى حليمة المسكينة . في تلك الآونة جاءني من هذه الاسرة شاب يافع يشتكي من نزف في آخر البول وحرقة في مجاريه ، فوصفت له مايوصف لامثاله حين تكون الحالة فردية . وبعد بضعة ايام جاءني سبعة من افراد عائلته يشتكون من الاعراض ذاتها . وجدت عندئذ ان الامر تعدى الحالة الفردية الى حالة وبائية تستدعي البحث عن منشأها وتطوراتها ، وان علي ان اخبر المراجع الصحية لتتخذ في شأن هذا المرض ما هو واجب من دراسة وتدابير علاجية ووقائية .

اول مايخطر في بال الطبيب في مثل هذه الحالات ، وفي ريف مثل ريفنا، ان تكون هذه الاعراض لاصابات بالبلهارسيا، هذا الداء المداري المنشأ الذي اصبح مستوطنا في بعض مناطق ريفنا الشمالية منذ اواخر الحرب العالمية الثانية . ومن حسن الحظ ان تكون منظمة الصحة العالمية

قد افتتحت في بلدنا ، وبمعاونة سلطاتنا الصحية ، مركزا لمكافحة هذا الداء مجهزا بمختبر لكشف حالاته ومهيأ لمعالجة الاصابات به • لذا فقد ارسلت الى مركز مكافحة البلهارسيا افراد تلك الاسرة ليجري فحصهم مخبريا • وجاءني الجواب ، بعد الفحص ، سلبيا • لم يدهشني هذا • فانا اذكر اني كنت وقعت ، في سنين سابقة ، على حالات مرضية مشابهة لحالات افراد هذه الاسرة ، بعضها في قرى جنوبي نهر الفرات وبعضها في قرى شاطئه الشمالي ، واني كنت في كل مرة استنهض همة الدوائر الصحية لتكافح هذه الحالات التي لاشك في وبائيتها ، فكانت تلك الدوائر تجيبني بأن هذه الحالات ليست بلهارزيا ، اذ لم تشاهد في ابوال المصابين لاديدان طفيلي هذا المرض ولا بيوضه • اما الذي يدهشني فهو تقاعس من يجب عليهم متابعة هذه الحالات المرضية عن متابعتها لمعرفة هويتها الاصلية ، فكأنهم كانوا يقولون لي : مادام ليس هنالك بلهارزيا فليس هنالك وباء ••• مالطه يوق ايها الطبيب ، فدبر انت حالك •••

وكنت في الحق مضطرا الى ان ادبر حالي مع اولئك المرضى بمعالجات افرادية لم اكن واثقا من مدى نجوعها • والذي كان يجري ان تلك الوافدة الوبائية تهمد من نفسها ، فتختفي اعراض المرض من الذين داويتهم ، ومن الذين لم يداوهم احد ايضا • فكأن العناية الالهية التي تعرف ان مايحدث في البلدان التي تكاملت فيها التدابير الصحية لاينتظر ان يحدث في بلادنا ، تتكفل هي بالقضاء على الوباء دون خسائر ، او بالزهيد منها • وما يصح في وافدات البيلة الدموية صح قبلها في وافدات حبة السنة التي تكلمت عنها في فصل سابق • فما لم اذكره في مقالي « مالطة يوق » ان حبة السنة التي ظهرت في ريفنا اثر انتشار زراعة

القطن فيه والتي لم يكن لها حظ من المكافحة العلمية ، كانت ولاتزال تنتهي بشكل يكذب ماتقوله كتب الطب ومايتخوف منه الاطباء امثالي. على خلاف حبة حلب وحبة بغداد وحبة بسكرة التي تترك ندبات مشوهة تدمغ وجوه حامليها الى آخر العمر ، فان حبة السنة في ريفنا تشفى في مدة تتراوح بين ستة شهور وعام كامل ، دون ان تترك في غالب الاحيان اي اثر مشوه ...

كل هذا مر في خاطري اليوم حين جاءت الي الفتاة حليمة بوجهها الشاحب شحوبا شمعيا ، خجلة مستحية ، لاتفصح عن مرضها الذي تراه عيبا وليس فيه ما يعيبها بشيء . لم احلها الى مركز مكافحة البلهارسيا ، ولا الى مركز آخر مماثل . لو فعلت لجاءني الجواب ان « مالطة يوق » .... لذا فقد فحصتها فحصا ظاهريا واعطيتها معالجتي الفردية المألوفة . واذا سارت الامور على ماتوقعه فانها ستنجو من هذا المرض بخسارة معقولة ، هي القليل من فقر الدم القابل للتعويض .... وسيهمد الوباء في قريتها « العماير » من نفسه كما همد قبله في قرية السلحبية وقرية البوحمد على ضفتي الفرات الشمالية والجنوبية ... وسأظل انا اردد بيني وبين نفسي ، او مع الناس الذين يفتقدون في ريفنا الاجراءات الوقائية والتدابير العلاجية ، تلك الكلمة المأثورة : الذي ماله أب ، له رب !



عــرج المعــدة

رفعت رأسي عن جسد الطفل الذي كنت اقوم بمعاينته لأرى رجلا شق الزحام اليّ ، حتى اذا وصل الى مقربة مني رفع صوته منشدا بصوت عال هذه الموليّا الفراتية :

اللــهْ خلــقْ صاحبْ ، والله خلق لي عْدا
المرضْ لــهْ منتهى ، والموتْ لــهْ وعْده
حكيمْ ، مراضي عصبْ ولاّ عرجْ معده ؟
رايــدْ هــرجْ منّك بــهْ منصحــهْ ليّا

وقد تكون الموليّا هذه عسرة الفهم على عامة القراء ، الا انهـا بالنسبة الى ابناء ريفنا مقطع من الشعــر لا تعقيد فيه . كان الرجل يقول :

« خلق الله الصاحب ، ولي خلق الاعداء . والمرض له منتهاه ، والموت له ميعاده . ترى ما مرضي يا حكيم ، اهو « عصب » ام هو « عرج معده » اريد منك كلاما فيه النصيحة لي . » .

وبيت القصد في هــذا المقطع الشعري هــو البيت الثالث الذي يتساءل فيه قائله عما اذا كان مصابا بعرج معدة ... فما هو « عرج المعدة » ؟

ابدأ فأقول ان العرج لغة في العرق . وسكان ريف الفرات يلفظون القاف حسب موقعها من الكلمة مرة جيما شامية معطّشة ومرة جيما مصرية . اما عرج المعدة ، اعني عرق المعدة ، فهو مرض لا تعرفه عامة الاطباء ولا ورد ذكره في مجلدات العلوم الطبية ، ومع ذلك فهو داء منتشر،بل مستشر،في مناطق وادي الفرات والبادية حول هذا الوادي.

انه كما قلت مرض منتشر ومستشر . وهو داء قديم في المناطق التي ذكرتها . ومع ذلك فاننا ، نحن الاطباء نقف حياله موقفا غريبا . نحن لا نعترف بـه مرضا ونرمي المصابين بـه بالتوهم ، وهم برغم ذلك يصرون على الشكوى الدائمة والملحة منه . ذلك اننا لا نجد في اجساد هؤلاء المصابين ، عندما نعاينهم بطريقتنا المدرسية ، ما يدعونا الى الظن بمرض له الاعراض التي يصفونها . يكشف واحدهم للطبيب عن بطنه ويشير الى موضع من الناحية الشرسوفية،بين السرة ونهاية عظم القص، ويقول ان هنا عرقا « يضرب » ، يعني انه يخفق ، فيؤلمه ويضيّق خلقه ويهد عزمه . عرق ؟ ان الطبيب يعرف من معلوماته التشريحية ان الذي يخفق في هذه الناحية من جسد الشاكي هو الابهر البطني ، وان خفقانه هو نبضان فيزيولوجي ، أي طبيعي ، فيضحك من شكوى مريضه الذي لا يعرف التشريح ولا الفيزيولوجيا ، ويقول له انه يتوهم مرضا لا وجود له ، او انه موسوس لا يحتاج الى علاج بل الى طمأنينة وراحة بال ...

ولقد ظللت في بدء ممارستي الطبية امدا طويلا اقول لمرضاي ما قاله زملائي قبلي ، وما زالوا يقولونه ، من ان الشكوى من نبضان هذا العرق وهم لا واقع مرضيًا له . غير اني مع تتابع السنين وكثرة مـا

سمعت من شكاوي المترددين عليّ من هذه الحالة ، وجدتني اتجاهل انكار الطب الرسمي لواقعيتها . فأنحاز الى صف المرضى في اعتبار نبضان الأبهر البطني . في بعض اشكاله ، داء له اعراضه التي يمكن ان تستقصى بصورة موضوعية . كما ان له اسبابه ، ولا بد ان تكون له مداواته الخاصة . فليس منطقيا ان اظل اتجاهل آلام مئات المصابين ، بل آلافهم . وانا اراهم يلجأون للتخلص من تلك الآلام الى تجرع اكره الادوية . مما يصفها لهم الدجالون المتطببون . او يتحملون الكي بالنار كلما اشتد عليهم نبضان العرق . حتى لتختفي بشرة بطونهم تحت طبقات من الندبات المشوهة ، او من القروح النازفة والمتقيحة . لم اعد اتهم هؤلاء المرضى بالتوهم ، بل رحت اقول لهم ان شكواهم من هذا العرق محقة . وتسهيلا لفهمهم سميت لهم هذا العرق عرق المعدة ، واضفت بأن الخفقان الذي يشعرون به في عرق المعدة هذا ليس مرضا بذاته وانما هو نتيجة لمرض آخر كامن في اجسادهم ، علينا ان نهتدي لتشخيصه لنعرف معالجته .

لم اكن اخادع مرضاي بما كنت اقول لهم . فالواقع ان تلك كانت نتيجة توصلت اليها من تتبع حالات الشكوى من عرق المعدة ، بل اني شرحت هذا النتيجة في ذات مرة في محاضرة القيتها على جمع من زملائي الاطباء الممارسين في ريفنا ، مسميا لهم هذا المرض باسم « تناذر عرق المعدة » . والتناذر ، او السندروم ، باللغة الطبية ، هو مجموعة اعراض متلازمة تتصف بها حالات مرضية معينة . كما اني بينت لأولئك الزملاء تجربتي الخاصة في معالجة هذا التناذر . وليست معالجتي التي وصفتها اكتشافا جوهريا . ولكنها على الاقل توفر على المرضى في مناطقنا مزيدا من قروح الكي على جلودهم . ومزيدا من شعوذة المتطببين في تحميلهم

التمائم وسقايتهم الجرعات الكريهة ، وتسكن قلق نفوسهم وتشدد من عزائمهم .

وانا اعترف بأني لم انجح في اقناع زملائي الذين استمعوا في ذلك اليوم الى حديثي عن تناذر عرج المعدة ، او عرقها ، بأن لهذا التناذر وجودا علميا ، ما داموا لم يقعوا ، كما قلت ، على كلمة عنه في واحد من مجلدات العلوم الطبية التي درسوها في جامعاتهم . الا اني واثق من ان مرضاي مقتنعون بقدرتي على جلب بعض النفع اليهم في تخفيف آلامهم التي طالما شعروا بها من خفقان هذا « العرج » . قسم كبير من هـذا الاقتناع منبعث عن تصديقي لهم في توجعهم ، وهم الذين ألفوا سخرية الاطباء باقوالهم واستهاتتهم بما يصفون . وقسم منه يرجع الى دأبي في البحث عن الاسباب العميقة ، نفسية وجسدية ، التي تجعل هـذا العرق ينبض في بطونهم بحدة غير طبيعية ، مسببة لهم الضيق والالم ، ومحاولتي معالجة تلك الاسباب . ولعلّ ذلك الاقتناع هو الذي ساق اليّ في تلك الصبيحة هذا المنشد ، قادما من قريته البعيدة ، ليصوغ لي شكواه في ابيات فيها التوجع وفيها الامل بقرب الشفاء ، قائلا :

حكيـم ، مراضي عصب ولاّ عرج معـدة ؟
رايـد هرج منّـك بـه منصحة ليّـا ...

* * *

اشعار في عيادة الريف

منشد المولّيا الذي رويت ابياته في الحلقة الفائتة ليس الوحيد الذي قال شعرا في عيادتي ، او عنها • فالمرضى الذين شكوا لي بالشعر امراضهم ، او الذين شكروا لي مساعدتي اياهم على الابلال من عللهم، كثيرون • ولعل معرفة الناس بأني كنت في ذات يوم شاعرا ، او بأني اقول الشعر بين الحين والحين ، هي التي دفعتهم الى ان يقارضوني الكلام الموزون المقفى أكثر من غيري من الزملاء الاطباء • كثيرون سواي بين الاطباء تلقوا الشعر شكرا ، او اجرا ، على اتعابهم في معالجة المرضى • وانا اعرف من زملائي من يعلق في مكتبه ، او في بهو منزله ، قصيدة او قصائد قيلت في مواهبه الطبية مكتوبة بخطوط جميلة ومحاطة باطر مذهبة وانيقة •

لست طبعا من الذين يعلقون على جدران عياداتهم قصائد من هذا النوع ، الا اني احتفظ بين اوراقي بكثير من امثالها • جدران عيادتي عارية في العادة • وفي بعض الاحيان تعمد ممرضتي الى تزيين هذه الجدران ، على هواها ، بلوحات مما يصل الى يدها من صور الدعاية الطبية او بملصقات وزارة الصحة • واتدخل احيانا لرفع هذه الصور والملصقات ، لا كرها مني بالزينة الفنية ، وانما لاسباب اخرى • حدث مرة ان علقت الممرضة على الجدار الرئيسي لغرفة المعاينة ثلاث لوحات في اطرها لوجوه اطفال نضرة ، اطفال نستله كما يسمون ، وهي بعض اللوحات التي توزعها شركات حليب الاطفال دعاية لمنتجاتها • كان

جمال وجوه الصغار في تلك الصور ، ونضرة بشرتهم ، وعلائم الصحة المتفجرة من تقاطيعهم ، تجلب نظر النساء المترددات على العيادة فيقفن مأخوذات في تطلعهن اليها . وروى لي احد مسرضيّ ان امرأة منهن قالت ذات مرة تحدث رفيقتها : « ما اجملهم من اولاد !.. ترى من يكونون ؟ » . فأجابتها الاخرى بقولها : « لابد انهم ابناء حكيمنا من نسائه الاجنبيات ، علّق صورهم فوق رأسه .. . اما ترينه يغيب عنا مسافرا في كل سنة عدة شهور ؟... انه يذهب لزيارة امهاتهم في بلادهن البعيدة !... » . ضحكت لما رواه لي الممرض . ولم يكن سهلا اقناع تلك الامرأتين ومثيلاتهما بأنه لا ولد لي في البلاد التي اتردد عليها في اسفاري . وكل ما قدرت عليه هو اني نزعت تلك الصور عن الحائط لاتجنب الشبهات . ورحم الله امرءا جبّ الغيبة عن نفسه ...

ولأعد الى الشعر . ارجع بين الحين والحين الى هذه القصائد التي تكلمت عنها فاجدها تكفي لأن تملأ ديوانا كاملا . وليطمئن القراء ، فان هذاالديوان لن ينشر في يوم من الايام ... اولا لاني لا اعتقد ان قراءة ديوان مثل هذا تهم كثيرا من الناس ، وثانيا لأن القادرين على فهم اغلبية قصائده قليلون . اكثر هذه القصائد هي من نوع موليّا المنشد التي نقلتها فيما سبق ، والتي احتجت الى ان اترجمها كي تصبح مفهومة للقرّاء . فهي مقولة باللهجة الريفية التي يعسر فهمها على غير ابناء المناطق الفراتية . وأضرب مثلا منها الموليّا التالية :

درست كـــل الكتب ومساهـــر الليلـــي
وربحت بكـــل العلم مـــن دون العجيلي
واني مـــا بيـّــا مـــرض الا ردا حيلـــي
وعجزت عـــن وصفه بيهـــا شفـــا ليـّــا ؟

قائل هذه المقطوعة الشعرية لم يأتني مادحا ، بل جاء يعاتبني بها لأني مع كل مزاياي لم استطع ان اجد دواء لدائه الذي لا يراه مرضا معقدا . فهو يقول ، لافضّ فوه :

« انت درست كل الكتب ساهرا الليالي ، ونجحت بكل العلوم دون اقرانك من بني العجيلي ... وانا ، ليس بي مرض الا رداءة عزمي وحيلي ... فكيف عجزت عن وصفة بها لي الشّفاء ؟... » .

انها كلمات بسيطة بعيدة عن التزويق ، غير انها بسذاجتها البدوية تؤثر في النفس وتدعو الانسان ، اعني الطبيب الذي يفهمها ويتأثر بها ، الى ان يضاعف جهده ليسعف هذا الشاكي ، لو ان لمضاعفة الجهد فائدة في شفائه . الا ان الطبيب يدري ، اكثر من غيره وخيرا من غيره ، بأن لمعرفته ولقدرته حدودا ليس بمكنته تجاوزها . وهو في نفس الوقت لا يستطيع ان يصرح بهذه الدراية لمرضاه ، لئلا يفقدهم الامل الذي ساقهم اليه . مثل هـذا الامل غنته مريضة بدوية في بيتين انشدتهما تستجير فيهما بطبيبها من هموم المرض الذي نزل بها ، اذ قالت :

غربي طاحونـة عيّاش دقّ النجـر بالليلـي
واني دخيـل الدكتور عبد السلام العجيلي ...

تقول هذه البدوية ان رنين النجر ، وهو المهباج ، الذي سمعته ليلا غربي طاحونة عياش ، هاج شكواها ... وانها لتستجير بطبيبها الذي تثق به ليريحها من هم تلك الشكوى !... ولقد اصبح هذان البيتان بعض غناء الفتيات في الاعراس ، ينشدنه في حلقاتهن وقد صرفن معانيه من الشكوى الطبية الى الشكوى من لواعج الهوى ومضايقات الحب . وحين اسمع الغناء باسمي في هذين البيتين في حلقات الدبكة ،

لا املك نفسي عن الابتسام وانا أرى كيف تحوّل ما قيل في مقدرتي الطبية الى استجارة من العشاق بجاهي لانصفهم من ظلم الاهل ، او من قساوة الظروف .. او من صدود المحبوبين عن المحبين ...

وغير هذه المقاطع التي ذكرتها،تحتوي اوراقي مطولات من القصائد لايخلو بعضها من شاعرية تدعو الى الاعجاب باتساع خيال ناظميها او بدقتهم في وصف ما يشكون منه . من هذه قصيدة تكاد تكون معلقة ، اروي للقارىء بعض ابياتها دون شرح . فمفرداتها فصيحة ، غير ان الوزن لا يستقيم فيها الا بقراءة هذه المفردات باعرابها الخاص . قال الشاعر فيها :

ابدي بذكر الله العالي الفتاحْ
المحيي العظام وهيّ رميمهْ
اشكي لك بحالي يا خالق الارواح
يا خالق الدنيا يا ربا كريما
روا لي بعيني قبّاض الاوراح
قمت من فراشي ولا ادركت الهزيمة
الشهر كامل لا آكل ولا ارتاح
وجيت لعبد السلام روحي عديمة
جضعني للمعاينة وطوّل المشواح
وقفّ على الرجلين وكثّر بالعزيمة
وقفني على الكهربا ومن عينه دمع ساح
من حالي بالكسافة يبكي بهضيمة

الله يسعد عبد السلام عدد ما هبت الرياح
نوى عليّ الصديـق مـن قلبٍ سليمة
ثلـث ايـام غـذانـي التفـاح
مثـل سـم الحيـايـا بقابـي نعيـمـه
الابـر بـزرّي مثـل ضـرب الرمـاح
يـوم حـرب الزيـر المـابـو تهيمه ...
الى آخر ماقال ...

ولقد اثقلت على القارىء بهذه الاشعار البدوية التي يخفى عليه فيها النغم الموسيقي والمعنى المؤثر . الا اني لا اريد ان اتركه قبل ان انقل اليه قصيدة ، لن يعنته فهمها ، لانها قصيدة فصيحة . ولا بد لي من الاعتراف بأن المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة غابت عـن ذاكرتي ، كما غاب عنها اسم قائلها ورسمه . لست اذكر من المناسبة ومن الرجل الا انه موظف ، واظنه معلما ، غريب عن بلدتي ، حلّ فيها زمنا . وقبل ان يرتحل عنها بعث بورقة فيها كلمات وابيات من الشعر لا ادري بم استحققتها . فلست اذكر اني اعطيت هذا الشاعر ، او بذلت لولده ، شيئا تجاوزت به ما اعطيه الآخرين في عملي اليومي . لكنه كان امرءا كريما فكتب في الورقة التي بعث بها اليّ ما يأتي :

« قال السيد المسيح لتلاميذه : مجانا اخذتم ومجانا اعطوا . ولكن في مدينة الرقة بلد الرشيد انسان اخذ بثمن ويعطي مجانا ، الا وهو الدكتور عبد السلام العجيلي » .

له في خدمـة الانسان مبدا تقاضى اجره شكرا وحمدا
طبيبـا حاذقـا وفتى نبيـلا وشهما باذلا في الخير جهدا

بـــلاد الشام تعرفـــه وزيرا	لاجل سلامها ضحّى وفدّى
اذا حمـــل اليراع اباح درّا	كريمـــا ناظما عقـــدا فعقدا
ومـــا للدر مـــا يعلو خلودا	ويعطي درّه للخلـــد خلـــدا
وترتعـــد المنابـــر بابتهـــاج	على شرفاتهـــا امـــا تبـــدى
خواطره ببطن الكتب نورٌ	على مرّ العصور تزيد وقدا
اذا في حمده اسديت سطرا	الى وَالدي يدا مشفاء اسدى
فتى يأبى بكسب المال مجدا	فيكسبه ثنـــاء الناس مجدا
يجود بطبـــه واجود شـــعرا	واحسب في كلا الجودين جودا

رأت عيني الفرات وفعل عبد السلام فقلت من يا عين اندى !

ربما كان عليّ ان اعتذر عـــن ايراد هذا المديح لشخصي الذي تضمنته هذه القصيدة ، وان ادفع عن نفسي تهمة تصديق المبالغات التي جاءت فيها . ولكن الحديث عن الشعر في العيادة الريفية انتهى بي الى نبش ما رقد سنين طويلة في ادراجي لا يطلع عليه احد . وما اكثر مـــا احتوته هذه الادراج من اشعار ، ومن حكايات ، ومن اسرار ...

* * *

السرّ في الابـــرة

في عيادتي الريفية اصبح اليوم الرابع عشر من شهر نيسان عـــام ١٩٧٥ يوما تاريخيا • ففي ذلك اليوم تلاسن ممرض العيادة وممرضتها، وقيل لي انهما تضاربا امام المرضى ، فصرفتهما عن الخدمة وقررت ان استأنف عملي منذ اليوم التالي بالطريقة التي يتبعها زملائي ، في كـــل العيادات الطبية في كل بلاد الشام ، مكتفيا بمعاينة المرضى ثم بكتابة الوصفات لهم ، مستغنيا عن زرقهم في عيادتي وباشرافي بالابر الدوائية، ذلــك الزرق الذي كنت اطبقه عليهم ، مكرها في كثير من الاحيان ، بصورة روتينية ومستمرة •

فمنذ ابتدأت ممارستي لمهنتي في بلدتي الصغيرة عوّدت مرضاي ، او انهم عوّدوني ، ان لاتصح معاينتهم او تتم الا بأن احقن احدهم بابرة او ابرتين او بثلاث ابر دوائية • يختلف عدد الابر المزروقة للمريض الواحد بحسب حالته الصحية ، او حالته النفسية ، او بحسب عوامل اخرى بعيدة عن هذه وتلك بقليل او كثير • ولهذا كانت حاجتي دائما الى اكثر من ممرض واحد في عيادتي لاستطيع تأمين زرق مرضاي الكثيرين بابرهم الكثيرة • غياب احد الممرضين لسبب او لآخر كـــان يلقي عليّ همـــا كبيرا ، فـــلا المرضى يقبلون الانصراف الى غيري فيخففون عني ، ولا انا قادر على ان افي بحاجة كل المرضى من الابر •

وقد يتساءل القارىء الحضري الذي يفضل ان لا تمس ابرة الدواء

جلده عما يلزمني بزرق الابر لمرضاي بهذه الصورة المستديمة . فأقول اني اضطررت الى اتباع هـذه الطريقة في المعالجة ، بـين مراجعيّ الريفيين ، لاسباب متعددة . اولها اني ورثتها عن الاطباء او المتطببين الذين سبقوني في هذه المنطقة وجعلوا الزرق بالابرة مرادفا للمعالجة الناجعة في اذهان ابنائها ، ومبررا للاجر الذي يتقاضاه الطبيب لقاء هذه المعالجة . فما كان من السهل اقناع الناس في ريفنا بأن جسّ نبض واحد منهم ووضع السماعة على صدره وخطّ بضع كلمات على ورقة صغيرة يستحق ان يدفع له قرشا من المال الذي شقي حتى جمعه بكد اليمين وعرق الجبين . كما لم يكن من السهل اقناع واحدهم بأن شفاءه من حمّاه المطبقة او من وجع مفاصله المزمن يأتي هينا دون ان تؤلمه ابرة معدنية تدخل في لحمه ودون ان يحس لدواء هذه الابرة حرقا في جسده أو حرارة في عروقه أو رائحة كريهة في منافسه . لذا فقد كان الطب في ريفنا البدوي يعني الابرة قبل كل شيء ، ولا طب بدون الابرة.

والواقع ان الابر الدوائية ليست شرا كلها . بل ان خيرها كثير عند اصناف المرضى الذين كانوا يمرون عليّ في عيادتي . انهم ، في قلة وعيهم لضرورة التوقيت في استعمال الادوية ولطريقة استعمالها ، كثيرا ما يهملون تناول العلاج الموصوف لهم في اوقاته المحددة ، او انهـم يتناولونه بغير الطريقة الموصوفة . اما الابر التي تزرق لهم في عيادة الطبيب فانها تضمن لهم ان يصل الدواء الى جسد واحدهم بالكمية المحددة وفي الوقت المحدد . ثم انه ليس غريبا من المصاب بحمى البرداء منهم ان يفضل الزرق بابرة واحدة من الكينين على المثابرة اياما عديدة على تناول حبوب كريهة الطعم عسيرة في البلع . كما انه ليس غريبا من الامرأة الريفية ان تفضل ابرة واحدة تزرق بها كل ثلاثة شهور ، لمنعها

عن الحمل ، على ان تضطر الى ان تتناول في كل يوم من ايام هـذه الشهور الثلاثة حبة دواء قد تسهو عنها . او تتكاسل عن تناولها • او تخطىء في تعيين الفواصل بين علبها . فتقع فيما تريد الخلاص منه •

يضاف الى ما اوردته عوامل نفسية لا يصح للمرء ان يجهلها او ينكرها بين عناصر الشفاء في اجساد المرضى.حين تكون لهم ثقة بالدواء يتلقونه من يد الطبيب نفسه او تحت رعايته المباشرة • لست انسى ذلك الرجل ، وامثاله كثر . الذي جاءني مرة في حالة سيئة ، فوصفت لـه ادوية معينة يأخذها عن طريق الفم • كان يراجعني كل يوم على قلة حاجته الى ذلك وعلى ضيق وقتي عـن استقباله . فاجده في تحسن استمر حتى بلغ به الى الشفاء • وفي ذات يوم ، وتحت الحاحه ، رضيت ان ازرقه ، وبيدي شخصيا : حقنة كالسيوم في وريده • لم اته مـن زرق محتوى الابرة حتى رأيته قد انبسطت اساريره وملأت الابتسامة وجهه • قال : الآن شفيت ! قلت له : انت في صحة كاملة منذ ايام • قال : بل الآن شفيت ••• هل تدري يا حكيم اني لم آت من رأس العين ، وهو مكان على بعد اكثر من مائة كيلو متر من هنا ، الا لهذا ؟ رأيت في المنام ، منذ اول وقعتي ، اني قصدتك وانك ربطت يدي هذه الربطة واعطيتني هذه الابرة نفسها ••• كل الادوية التي شربتها لـم تصب مكان العلة من جسدي ، وهذه الابرة اصابتها !•••

على ان تعلق مرضاي بالابر ، وبتلـك التي يأخذونها في عيادتي وتحت اشرافي ، جاوز حدّه واصبح لي غلاً اكرهه واتململ منه ولكني لا اجد الوسيلة التي تخلصني منه • حتى جاءت حادثة نزاع الممرض والممرضة وسوء خلقهما امام المراجعين • صرفتهما حينذاك عن العمل ، وغيرت طريقة العمل نفسها ، فعلقت في صدر البهو لافتة كبيرة تعلم من

يأتي لاستشارتي ان لا أبر تعطى في هذه العيادة ، واذا كانت من حاجة اليها فانها تزرق خارجها .

كان هذا التغير شيئا مفاجئا لمرضاي . تقبله بعضهم على مضض ، وتحول بعضهم عني الى مراجعة زملاء لي في البلدة لم يستنكفوا عما استنكفت عنه . وحسنا فعل اولئك المتحولون حين خففوا عني بعض العبء الذي انهكني تحمله . الا ان ذلك التحول لم يطل ، اذ ان الذين انصرفوا عني في البدء لم يجدوا بدا ، ولعوامل مختلفة ان يعودوا اليّ . وتقبــل الجميع اسلوبي الجديد في معالجتهم ، ولكني كنت المح في عيونهم واسمع من افواههم حنينهم الى عهد الابر ورغبتهم فيهـا . ووجدتني انزلق الى التساهل في ارضائهم . وجدتني اعود الى زرقهم بالابر ، ولكن بوصف جديد غير الوصف الذي كنت اعطيه لها قبلا . رحت افهمهم اني طبيب مثلغيري في بلاد الناس الاخرى ، اعايــن مرضاي وآخذ اتعابي لقاء المعاينة والفحص وحدهما ، واني اذا زرقت احدهم بابرة ، فاني افعل هذا كمعين للمعالجة وهدية مني للمريض ، وليست هي من صميم المعالجة ذاتها ...

هذا التخريج للامور او التحايل عليها قد يجده زملائي في حضر بلادنا ، وفي كل البلاد الاخرى ، تصرفا مضحكا . بل ربما تصرفا معيبا في صدوره من طبيب ذى عقلية علمية مثلي . غير انه في كل حال امر واقع اجدني مقسورا على تقبله وتطبيقه . فانا على الرغم من سلوكي العقلاني وتفكيري العلمي لست قادرا على ان اخلص من عيوب الريف كل الخلاص ، والا لما كنت الطبيب الريفي الذي انا هو في المنشأ ، وفي الحقيقة ، وفي الواقع .

* * *

المجهــر المهجــور

كان ذلك منذ اثنين وثلاثين عاما ، بل وأكثر •

في احد ايام ذلك الزمن البعيد استدعيت الى منزل في البلدة ، الى دار علي الصالح جاووش ، لاعالج مريضا قيل لي انه في خطر ، وانه جيء به مــن قرية على الحدود التركية في الشمال • وكان الرجــل في حالة سيئة حقا : لونه ترابي كدر ، وحرارته شديدة الارتفاع ، ولسانه جاف مشقق كأنه مشويّ على جمر ، وهو لا يملك مداركه فيهذي بدون انقطاع • قمت بفحصه على الارض الترابة التي كان ملقى عليها فوق بساط بال فلفت نظري ، تحت ابطه ، وجود مجموعة عقدية اشبه ما تكون بدمل قارب الانفجار • أيّ دمل عاديّ لا يمكن ان ينتهي بالمريض الى مثل هذه الحالة السيئة ، فعليّ اذن ان اتعرّف على عامله المرض بأخذ عينة من قيح هذا الدمل ببزله ثم بفحص لطاخة منه تحت عدسة المجهر •

وهذا ما فعلته • كنت وقتها حديث التخرج من الجامعة ، عدت منها في دمشق الى بلدتي الصغيرة احمل ركاما من المعارف الطازجــة ، واحمل ما استطعت الحصول عليه بوسائلي المادية المحدودة من ادوات البحث والاستقصاء : مجهرا وكواشف كيماوية ، وملونات مختلفــة للفحص الجراثيمي • واهم من ذلك كله كنت احمل حماسي للمعرفــة المجردة واهتمامي بتشخيص ماتقع عيني عليه من حالات المرض مثــل

اهتمامي ، اذا لم يكن اكثر ، بمعالجة تلك الحالات والسير باجسام اصحابها نحو البرء والشفاء . فكانت طبيعية اذن مبادرتي الى فحص قيح ذلك الدمل ، بعد بزله ، بمكرسكوبي ، مجهري الثمين .

وانا حين اتذكر اليوم مارأيته في لطاخة القيح بعد ان لونتها ووضعتها تحت عدسة المكروسكوب اكاد اشعر بالرعشة تلف جسمي وبالهلع يسيطر علي . هذا الآن . اما منذ اثنين وثلاثين عاما فلم تصبني الرعشة ولاشعرت بالخوف ، بل كدت اطلق صرخة حبور لوقوعي على كشف لايخطر على بال احد . فما رأيته في اللطاخة ، الى جانب كريات القيح البيض التالفة ، كان عددا لايحصى من مكروبات ذات شكل وصفي خاص ، لم اصدق عيني حين وقعت عليها ، ومع ذلك فاني عرفت نوعها واسمها منذ النظرة الاولى : عصيات جراثيم بيضوية الشكل ، مظلمة القطبين نيرة الوسط ، هي التي يسميها الجراثيميون عصيات يرسن ، او بصورة اوضح وافصح هي جرثومة الطاعون ...

الطاعون في بلادنا ، وفي بلدتي بالذات ، وفي مريض تحت يدي شخصيا ؟! كان ذلك شيئا مرعبا . ومع ذلك فاني ، كما قلت ، لم احس بالرعب . ماجرى هو ان اثار هذا الكشف الخطير اسئلة عدة في بالي ، وتقديرات اجوبة متنوعة على تلك الاسئلة . اول تلك الاسئلة كان : من أين جاء هذا البائس المشرف على الموت بجراثيم هذا الداء الملعون ؟ كنا على عهد قريب بالحرب العالمية الثانية التي كانت قد وضعت اوزارها في صيف ذلك العام ، ومن جراء تلك الحرب عبرت وعسكرت في منطقة الحدود السورية التركية قوات كثيرة للجيش البريطاني مؤلف بعض

قطعاتها من جنود المستعمرات المدارية والاستوائية. فلعل اولئك الجنود هم الذين زرعوا هذا الوباء في قرية هذا المسكين ...

وكان علي ان ابلغ السلطات الصحية في مركز المحافظة بالامر ، وان لاتلهيني اهمية اكتشافي عن اتباع الاجراءات اللازمة حتى لاتكون اصابة الطاعون الوحيدة هذه مثيرة للهلع في النفوس ومبعثا لاجراءات تعزل البلدة ، او المنطقة ، وربما البلد كله ، عن العالم . واهم من هذا كله ان لا تكون نقطة انطلاق لوباء فتاك اذا انتشر فانه لا يبقي ولا يذر. ولما كانت اسباب الاتصال في تلك الايام غير ميسرة ، فان البعثة الصحية الرسمية التي توجهت ، بناءا على اخباري ، من مدينة دير الزور الى الرقة ، ثم الى القرية الواقعة على بعد اكثر من مائة كيلو متر عن الرقة، لم تجد في بيوت تلك القرية نافخ نار . كانت قرية هزيلة ، دورها اربع قباب من اللبن النيىء او خمس ، متباعدة ومهجورة . هل هلك كل اهلها بالطاعون ام انهم فارقوها هائمين على وجوههم ؟ على كل حال كان ذلك علامة على ان الوباء ، في اغلب الاحوال ، قد انطفأ ودفن في مكانه . فمن صفات الشكل الدملي للطاعون ، وهو الشكل الذي قضى على المريض الذي تحدثت عنه ، انه لاينتقل في بدئه من شخص الى شخص ، وانما ينتشر بعضة الجرذان ولدغة البراغيث المصابة به . وهي حيوانات وحشرات تركها اهل القرية في قريتهم حين فروا منها الى غيرها ناجين بجلودهم ...

هذه الواقعة القديمة تعود الى خاطري بين الحين ، وذلك عندما تقع عيني على مجهري المهمل في زاوية من الغرفة الملحقة بمكتبي في الطابق العلوي من عيادتي . واذا كنت لم اقع على حالة طاعون بعد الحالة

التي رويتها ، فان عدسة هذا المجهر كثيرا ما ارتني واضحة صنوف الطفيليات والجراثيم ، عوامل الزحار والملاريا والالتهابات المختلفة ، وفي ذات مرة بريميات الحمى الراجعة في وافدة كان يصعب تشخيصها لولا رؤيتي لتلك الطفيليات اللولبية الدقيقة في لطاخات الدم تحت المكروسكوب • غير ان الزمن اخذ يباعد بيني وبين اخراج المجهر من صندوقه والاستعانة به في كشف اسباب ما يمر بي من علل المرضى • يوما بعد يوم رحت اكتفي بالخبرة التي اكسبتني اياها ممارستي الطويلة لمهنتي ، ورؤيتي لعشرات الآلاف من الحالات المتتابعة ، في معرفة اسباب الامراض ومعالجتها • كثيرا ماكفتني نظرة القيها على المريض لاعرف ، من لون سحنته او طريقة مشيه ، نوع دائه • وفي احيان اخرى تدلني رائحة العليل على نوع العلة ، او انها تقودني الى استقصاء علة معينة او حت الي بمعرفتها تلك الرائحة • خبرة اثبتت فاعليتها في اعوام طويلة ووثق بها الناس فتقاطروا على عيادتي من كل صوب ، فلماذا في وجودها اللجوء الى طرق تشخيص معقدة ومستغرقة الوقت الطويل ، من فحص مجهري وتحليل كيماوي وامثالها من اساليب الاستقصاء ؟

هذا ما اقوله لنفسي معللا تركي مجهري مغلقا عليه صندوقه في الغرفة منذ زمن طويل • ولكن الحقيقة هي ان الخبرة التي ادعيها لنفسي ليست وحدها السبب الذي من اجله هجرت استخدام المكرسكوب وسواه من وسائل الاستقصاء التي هي في مكنتي • انه قبل كل شيء الوقت الضيق والمزدحم بالمرضى الذي شغلني عن فضولي العلمي وصرفني عن السعي الى المعرفة المجردة • فحين يقف المراجعون بباب عيادتي بالعشرات ، قادمين من مسافات بعيدة ومكرهين على العودة في

اليوم نفسه او في خلال ساعات قليلة الى قراهم ، وكلهم يحمل شكواه المستعجلة ، فاني اعتذر الى نفسي بأني مكره كذلك على سلوك اقرب السبل واسرعها في السعي لتخفيف آلامهم والبحث عما يشفيهم. انه اعتذار أدرك هلهلة نسجة كلما القيت نظرة على المجهر المهجور فذكرني بايام كنت اقوم فيها بواجبي العلمي كما ينبغي . اتذكر تلك الايام فاحن اليها ، واشعر مع الحنين بما يشبه تبكيت الضمير عند ما ارى كم بعدت الشقة بين وبين هذه الاداة العلمية الثمينة ، وكم اختلف الطريق ...



ابو حيّة في العماير

قال لي صاحبي وقد رآني مقبلا عليه ، انفض غبار السفر عن ثيابي وعلى شفتي ابتسامة عريضة :

— اراك تضحك . خيرا ان شاء الله !

قلت له : اسمع هذه الحكاية ... كان ابوحية النميري شاعرا مشهورا بظرفه وبجبنه . وكان له سيف ليس بينه وبين الخشب فرق ، يسميه « لعاب المنية » . وفي ذات يوم سمع حسا وحركة في داره ظنهما للص في داخل الدار ، فوقف بالباب واستل سيفه وهو يقول : « ايها المغتر بنا ، المجترىء علينا ، بئس والله مااخترت لنفسك ... خير قليل ، وسيف صقيل ، لعاب المنية الذي سمعت به ، مشهورة صولته ، لاتخاف نبوته ... اخرج بالعفو عنك ، لئلا ادخل بالعقوبة عليك ...» واستمر يقول كلاما مثل هذا مهددا من في داخل الدار ، ولا احد يردّ عليه . وفجأة هبت ريح فتحت الباب فخرج منه كلب هو الذي كان يحدث تلك الحركة ، فاربد وجه ابي حية ووقع من الفزع ارضا ، فتبادرت اليه نساء الحي وقلن : لاتخف يا ابا حية ، انما هو كلب . فجلس وهو يقول : الحمد لله الذي مسخك كلبا ، وكفاني حربا ...

قال صاحبي : حكاية طريفة • ولكن ما الذي اعادها الى خاطرك وانت قادم من سفر ؟

قلت : اعادها اليه ان سفري اليوم انتهى الى ما انتهى وقوف ابي حية ذاك على باب داره • فقد جئت منه وانا اردد : الحمد لله الذي مسخك كلبا ، وكفاني حربا !

قال : لم افهم منك شيئا • الا تقول لي اين كنت في هذا السفر ؟

وهنا قصصت على صاحبي حكاية سفري الذي خرجت اليـه من بيتي هذا الصباح وعدت منـه لتوي • قلت له انـي كنت في قريـة « العماير » [1] التي كثرت شكايات اهلها لي من اعراض عسر بول ، مترافقة بآلام في الكلي والحالبين وبيلة دموية ، تالية كلها على ماكانوا يؤكدون لي لشربهم مياه بئر ارتوازية في قريتهم • وقد اغتنمت فرصة يوم الجمعة ، هذا النهار ، وذهبت الى تلك القرية لآخذ عينات من مياه تلك البئر وارسلها الى التحليل •

قال محدثي : ولكنك لست طبيبا موظفا • هذا عمل اطباء الصحة•

قلت : كلامك صحيح • غير ان الامر يهمني • منذ مدة جاءني احد سكان تلك القرية يحمل ماء غالون من البلاستيك من ذلك الماء •ارسلت نموذجا منه الى مختبر مؤسسة المياه عندنا فجاءني الجواب ان ذلك الماء نظيف من الناحية الجرثومية ، فشربت منه كأسا وشربت ممرضتي منه كأسا اخرى •••

---

(١) راجع فصل « الذي ماله اب ... » من هذا الكتاب صفحة ٩٥ .

قاطعني صديقي قائلا : ماشاء الله ! كيف تخاطر بنفسك هكذا ؟ كأنك تريد ان تصبح باستور هذا الزمان ...

ضحكت وقلت : لاباستور ولاغيره . ولكني قلت لنفسي انه مادام نقيا جرثوميا فلابد من ان يكون مفعوله كيمياويا . اردت ان اتحقق من ذلك بذاتي .

قال متسائلا : وماذا جرى لك بعد شربك تلك الكأس ؟

قلت : لم يصبني شيء مما اشتكى منه مرضاي . كل ماشعرت به وخز في امعائي زال بسرعة . وكذلك ممرضتي . ولكني كنت حدثت المسؤولين في وزارة الصحة بأمر قرية العماير ، فطلبوا مني ان ارسل اليهم عينات من ماء البئر ، مأخوذة بطريقة فنية اعطوني تفاصيلها . في هذا الصباح ذهبت الى تلك القرية لاجلب العينات بنفسي .

قال : خمسة وسبعون كيلو مترا ذهابا ، ومثلها ايابا ، في سيارتك الخاصة . مرة اخرى تتطوع لتقوم باعمال الرسميين . كأن وزارة الصحة تنقصها السيارات .

قلت : هي مجرد نزهة . منذ زمن لم ازر مناطق محافظتنا الشمالية، فانتهزتها فرصة لاراها .

قال : حسنا . وهل جئت بالعينات ؟

قلت : هنا حدث ماأضحكني واعاد الى خاطري قصة صاحبنا ابي حية النميري . فحين بلغت القرية تلقاني قبل البئر الرجل نفسه الذي جاء الي بغالون الماء منذ اسابيع . رحب بي وقال : اذا كنت يادكتور جئت

من اجل مرضنا الذي شكوناه اليك ، فانا عرفنا سببه • سألته : ماذا ؟ هل اجريتم التحليل على ماء البئر ؟ قال : ومن يجريه لنا ؟ كل ما في الامر اننا عرفنا ان المرض لم يأتنا من الماء ، بل من الخبز •

قال صاحبي : الماء ••• ثم الخبز ! لم يعد ينقص قرية العماير هذه الا الهواء ليكون مسببا لامراض اهلها الكرام •

قلت : استغربت مثلك قول الرجل • ولكنه فصله بكلام يسترعي الانتباه • قال لي انهم في القرية كانوا مؤمنين بأن ماء البئر هو السبب لما يقاسونه من عسر البول ونزف الدم • الى ان استضافهم منذ بضع اسابيع ابن عم لهم يقيم بعيدا عنهم ، في الضفة الشامية من الفرات وعلى مسافة مائة كيلو متر من قريتهم هذه • عندما تركهم الضيف عائدا الى اهله ارفقوه بكيس قمح هدية لعياله • بعد ايام ارسل ابن عمهم هذا اليهم يقول : « ماذا فعلتم بي وبأولادي ؟ طحنا قمحكم وخبزنا طحينه ، ومنذ بدأنا نأكل الخبز اصبنا جميعا بمرضكم الخبيث ••• آلام في البطن ، عسر بول ، الدم فيه ••• كل من اكل لقمة من خبزنا أصيب بما أصبنا به » • وهنا ، كما قال الرجل ، تبين ان سر المرض ليس في الماء بل في القمح الذي صنع الخبز منه •

قال صاحبي يسألني : وهل اقتنعت انت ياحكيم بهذا ؟

اجبته : الرواية مقنعة • اضاف الرجل انه منذ ذلك الحين تجنب اهل القرية اكل الخبز المصنوع من قمح ارضهم هذا العام ، فلم يصب احد منهم بالنزف او بعسر التبول على الرغم من استمرارهم على شرب ماء البئر نفسها • وفسر الرجل ذلك بأن قمحهم تلوث بالذرنوح •••

قال صاحبي : الذرنوح ؟ ما هذا الشيء من فضلك ؟

قلت : الذرنوح حشرة ، دويبة صغيرة ظهرها مكـور ومبرقش بالاحمر والاسود ، تتسلق سنابل القمح في الربيع واوائل الصيف .. قال الرجل ان الذرنوح غزا زروعهم هذا الموسم بكثرة ، فلابد انـه اختلط بالحنطة عند حصادها فتلوث الطحين بمسحوق هذه الحشرات فتسمم به ...

قال : وهل صدقت انت هذا ؟

قلت : صدقت الواقعة ، ولكني لم اصدق التفسير . ان لي تفسيري الشخصي . فاذا كان القمح قد تلوث بمادة سامة ممرضة فهي ليست مسحوق دويبات الذرنوح ، بل مسحوق الفطر الذي نسميه مهمـاز الجويدار . هذا الفطر ينمو على سنابل الحبوب المختلفة . فاذا لم تنظف هذه الحبوب منه واختلط بطحينها فان التغذي بذلك الطحين يسبب تسمما اعراضه مشابهة لاعراض مرض قرية العماير ...

قال صاحبي : وهل انت واثق من صحة تفسيرك ؟

قلت : هو مجرد نظرية ، يعوزها البرهان الذي لايتم الا بتحليل الطحين المشتبه به . ليس هذا شأني على كل حال . انا طبيب ، وما كان يهمني هو ان يتخلص اولئك الناس من مرضهم الذي ازعجهم وحيرني. ولقد حدث هذا . وهذا ما جعلني اعود بالقوارير التي اعدتها لعينات ماء البئر الارتوازية فارغة ، وانا اردد مثل ابي حية النميري : الحمد لله الذي جعل السبب الخبز لافي الماء ، والذي مسـخ ذلك العامـل المرض كلبا ، وكفاني حربا !

* * *

الخاتمة

كتبت فصول « عيادة في الريف » على مدى خمس سنين ، في فترات متقطعة ، بحسب ظروف موحياتها او ظروف نشر بعضها في مجلة « طبيبك » • وحين عدت فقرأتها جملة ، عند تهيئتها النشر في هذا الكتاب ، اكتشفت فيها مآخذ جديرة بأن تلفت نظر نقاد الكتاب عند قراءتهم له ، فاردت ان اسبقهم في الاقرار ببعضها ، او لاكون دليلا لهم عليها •

فمما يمكن ان يؤخذ على هذه الفصول انها اهملت التحدث عن امور كثيرة مهمة في حياة طبيب الريف وفي حيوات مرضاه • والواقع اني اعرف من غيري بما تجنبت الحديث عنه من قضايا مهمة في البيئة التي اعيش فيها • ثمة امور حيوية لم اخض في الكلام عنها لانها تعتبر محرمات ، تابو ، في اوساط الريف البدوي التي فيها تجري وقائع هذا الكتاب • وهناك امور اخرى ليست محرمة ، الا ان الاحاطة بها غير ممكنة في كتاب هذه نوعيته • وانا مازلت طبيبا ممارسا ، ومازلت اواجه كل يوم مايؤسي وما يسلي ومايحفز لردود فعل متباينة • وما اوردته في الفصول التي قدمتها هنا هي نماذج مما واجهت وليست كلاً ، ولايمكنها ان تكون كلاً جامعا شاملا •

ولقد اخذت على كتابي فيما اخذت ، هذه الصورة التي تعطيها فصوله لي انا شخصيا • صورة طبيب واسع المعرفة ، قليل العيوب ، بعيد عن الخطأ ، او انه اذا أخطأ فان خطأه يكون مبررا دوما تبريرا معقولا ومقبولا • ليست هذه الصورة صحيحة على كل حال • فانا مثل غيري من الاطباء ، ومثل الناس الآخرين ، جهلي اكثر من علمي ، ولي اخطائي التي لايمكن ان اكون معصوما منها • ولكن من منا يقر متطوعا بعيوبه ، ويقر بها بصورة خاصة على رؤوس الاشهاد ، اعني في كتاب يقرأه كل الناس ؟ لعل من شكوت في كتابي من سلوكهم ، او من لمتهم فيه على تصرفاتهم ، يشكون مني مثل ما شكوت ويلومونني مثل ما لمت ، او اضعافا • غير أننا هكذا مجبولون : نرى القذى في عين اخينا وتتجاهله في اعيننا ولو كان خشبة معترضة •

هذان مأخذان • ومن المحتمل ان يكون لهما امثال عديدة في كتابي • وانا على الرغم من اقراري بوجود هذه المآخذ اظل آمل ان يكون القارىء قد وجد بين دفتي هذا الكتاب مايشفع لي في ما يأخذه عليّ • اظل آمل ان يكون وجد فيه تنويها بقضايا لم يألفها ، وكشفا عن مجهولات لم يعرفها ، وتعريفا باجواء ليست بعيدة عنه في الزمان والمكان ولكن احدا مثلي لم يحمله اليها او يحملها اليه • كل ذلك في اطار مشوق ومسل ، وان يكن التشويق وتكون التسلية آخر ما اقصد اليه في ما اكتب ، مثل ما هما في ما افعل •

ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٧

عبد السلام العجيلي

مؤلفات الدكتور عبد السلام العجيلي

شعر : الليالي والنجوم .

القصة والرواية : بنت الساحرة ـ ساعة الملازم ـ قناديل اشبيلية ـ الحب والنفس ـ رصيف العذراء السوداء ـ الخيل والنساء ـ فارس مدينة القنيطرة ـ حكاية مجانين ـ الحب الحزين .
باسمة بين الدموع ـ قلوب على الأسلاك ـ ازاهير تشرين المدمّاة ـ ألوان الحب الثلاثة (بالاشتراك مع أنور قصيباتي) .

منوّعات : حكايات من الرحلات ـ دعوة الى السفر ـ المقامات ـ أشياء شخصية ـ احاديث العشيات ـ السيف والتابوت ـ عيادة في الريف .

* * *

مطبعة وزارة الثقافة

دمشق – ١٩٧٨



سعر النسخة

٣٧٥ ق.س.ل